سؤالات

د/ محمد بن إسماعيل المقدم

1

هكذا علمتني الحياة

تأليف

أ. د. مصطفى حلمي

رئيس قسم الدراسات الإسلامية . كلية دار العلوم . جامعة القاهرة



سؤالات الدكتور/ محمد بن أحمد إسماعيل المقدم

إلى الدكتور/ مصطفى حلمي

السؤال الأول

ماذا علمتني الحياة؟

توزيع

دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية - أبو سليمان - ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٦٧١٤٧٦٨ - ٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٢٥٨٣٤٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الخلفاء الراشدين

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع: ٢٣٤٨٤ ٢٠٠٩

الإدارة : ٠١٠٥٠١٣٦١٥١ البيعات: ٠١٢٠١٥٢٩٠٨

مُقَدّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فعندما ورد لي السؤال الأول من الأخ العزيز الدكتور محمد إسماعيل -حفظه الله تعالىٰ- عن «ماذا علمتني الحياة؟»، رجّحت أنه لم يقصد الاكتفاء بسرد الترجمة الذاتية لشخصي -الفقير إلىٰ الله تعالىٰ- في الدائرة الخاصة، وبالمعنىٰ التقليدي، ولكن يقصد التحدث

باستفاضـة عما تعلّمته أثنـاء اجتيـازي طريق الحياة في محيطها الواسع -أي: في دوائر التعليم والثقافـة، وفي ظل الانقلابات التي حدثت في مجتمعاتنا، وكان لها أثرهـا البالغ في الحيـاة الثقافيـة والاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسيـة-، وكلها ناجمة عن نجـاح الاستعمار في تهميش الدين في حياتنا بينما ينغرس في الغرب إلىٰ النخاع -كما اتضح لنا- في مذاهبه الفلسفية وأهدافه السياسية.

وما الحيلة إزاء استحالة العزلة عن الحياة العامة، وتعذّر التحرّر من أثر النظم المستوردة علىٰ حياتنا الخاصة؟

- لذلك حرصت بعد تسجيل تجربتي في طلب العلم علىٰ نقل انطباعات معايشتي لواقع أمتنا الإسلامية، حيث عانيت من آثار الغزو الثقافي الذي أدىٰ إلىٰ تشويه تاريخنا الإسلامي، وتجزئة أمتنا بأفكار الوطنية والقومية، واستيراد النظم من شرق أوروبا وغربها لتحل محـل النظم الإسلاميـة في الاجتماع والاقتصـاد والسياسـة والتعليم والتربيـة، وأصبح غرضي تصحيح المفـاهيم لشبـاب الصحوة الإسلاميـة حتىٰ لا يقع فيمـا وقعنـا فيه من بلبلـة في

المفاهيم[١]، وتفاديًا للعثرات التي استهلكت سنين غالية من العمر وقد قمت -بفضل الله تعالىٰ- بوضع ذلك كله في إطار فصلين:

---

(١) إن قراءة التاريخ الصحيح للأحداث المعاصرة التي غيرت مسار أمتنا الإسلامية يجب أن يسير جنبًا إلىٰ جنب مع تعميق الوعي السياسي وتعميقه بين شباب الصحوة الإسلامية رأيًا عامًا موحدًا فيتمكن منه حتىٰ يخلق التعليل والتفسير، وينقذ الشباب من التخبط بين وجهات النظر المتضاربة، ومثال ذلك الرسالة التي نشرها الأستاذ فهمي هويدي وهي لطالب في كلية التربية قال فيها: «لم نعد نعرف الصواب من الخطأ... فنحن نقرأ من يقول بأن النقاب بدعة ليست من الدين، ومن يقول إنه واجب يتطلبه الدين، ونسمع من يحرم الغناء والتمثيل والموسيقىٰ، ثم يأتي من يقول بأنها حلال في الأصل، ونطالع من يحدثنا عن مجد المسلمين وعظمة تاريخهم، ثم نجد من يقول إن التاريخ الإسلامي لم يكن سوىٰ سلسلة من المظالم والكوارث، ونقرأ لمن يتباهىٰ بالخلافة الإسلامية ويعتبرها حلمًا عظيمًا، ثم يجئ من يقول بأن الخلافة كانت كابوسًا والدعوة إليها فتنة، والأخطر؛ أن حيرة الواحد منا تشمل دائرة الحاضر، نحن لم نعد نعرف هل شركات توظيف الأموال تخدم الاقتصاد الوطني أو أنها تهدده؟ وهل أعضاء تنظيم ثورة مصر أشرار أم أخيار؟ وهل بيع فندق سان استيفانو لمصلحة البلاد أم ضدها؟ وهل الأمريكان أصدقاؤنا أو أعداؤنا؟ وهل جمال عبد الناصر زعيم وطني أم أنه دكتاتور خدع الشعب ولم يكن حكمه سوىٰ صفحة سوداء في تاريخ مصر؟».
نقلًا عن د/ ريمون ويليام بيكر «إسلام بلا خوف - مصر والإسلاميون الجدد» (ص:٥٤) ترجمة د/ منار الشوربجي - المركز العلمي للدراسات السياسية - الأردن - ط. سنة ٢٠٠٩ م. =

الأول: تعميقُ الوعي السياسي بقراءة التاريخ الصحيح للأحداثِ المعاصرةِ التي غيرت مسارَ أمتنا الإسلامية.

الثاني: الوقوفُ علىٰ معالمِ التحولِ من الثقافةِ الغربية.

وسأبدأ بالحديث عن تجرتبي في طلب العلم.

هذا، وبالله التوفيق ومنه المدد والعون.

كتبه

دكتور/ مصطفى حلمي

=وقد عُنيٰ مركز التأصيل للدراسات والبحوث بجدة بهذه الظاهرة المزعجة بعد استفحالها، فوصفها بمقدمة النشرة التعريفية بما يلي: [تعيش الأمة الإسلامية في واقعنا المعاصر حالة حرجة ومرحلة صعبة، فقد سيطر أعداؤها علىٰ وسائل التأثير والتوجيه، وأصبح أبناءُ المسلمين يعانون من ضياع الهوية وفراغ عقدي وفكري هائل، وفي الوقت الذي يعايشون فيه انفتاحًا فكريًا وإعلاميًا رهيبًا دون أي حماية أو رعاية أو محافظة علىٰ مقومات عقيدتهم من الزوال في ظل «العولمة» التي يمسك الأعداء بزمام المبادرة والتوجيه والتصرف فيها من خلال امتلاك مصادر القوة المتعددة السياسية والاقتصادية والفكرية وغيرها، ولهذا فقد حصلت تغيرات فكرية وتحولات عقدية كبرىٰ في الأجيال الأخيرة وترسخت مناهج ومفاهيم وتصورات تناقض العقيدة الإسلامية وتضادها].

مركز التأصيل للدراسات والبحوث - المملكة العربية السعودية

ص.ب ١٨٧١٨ جدة ٢١٤٢٥ - هاتف : ٦٢٨٨٦٨٥،(٩٦٦+) - فاكس : ٢٢٧١٨٢٣٠، (٩٦٦+)

تجربتي في طلب العلم:

اتضح لي من تجاربي أن أفْضَلَ السبلِ للنجاح -بعد الاستعانة بالله تعالىٰ- تحديدُ الهدف، والسعي لتحقيقه بكل ما أُوتِيَ الإنسانُ من قدراتٍ مدخّرة، فقد خلقنا الله تعالىٰ بقدراتٍ متنوعة، لا تظهر إلا ببذلِ قُصارىٰ الجهد، فلدينا -كما يذكر الدكتور عبد العزيز جادو- قوة احتياطية مدخّرة في كياننا كله، ويقول لنا العلماء أننا نمتلك ملايين من خلايا المخ لم نستعملْها ولن ندربها قط[١]!

والعاقـلُ من يعمـل علىٰ استعمالها وتدريبها بشرط المثابـرة وتنظيم الأوقات والتصميم علىٰ التغلب علىٰ الصعوبات ومواجهتها، لا الفـرار منها بالأعذار الواهيـة، مع الثبـات والصبر والنهم في طلب العلم وإخـلاص النية لله تعالىٰ، وقد أثمر هذا البرنامج بنتائج لم أكن أحلم بها، ولله الفضل والمنة.

---

(١) ويُنظر كتاب الدكتور عبد العزيز جادو بعنوان «قوانا الكامنة وكيف نستغلها» سلسلة (اقرأ) ٤٩٤ دار المعارف بمصر ديسمبر سنة ١٩٨٣م، ويقول وليم جيمس -كعالم نفس-: «إذا قسمنا أنفسنا إلىٰ ما يجب أن نكون عليه اتضح لنا أننا أنصاف أحياء». (ص:١١٣).

كذلك المواظبة على التعلم من مصدرين: أحدهما العلماء بالتلقي عنهم، والثاني: الاطلاع الواسع على المصادر والمراجع المتصلة بموضوعات البحوث.

ويأتي أولًا وآخرًا أن أكبر عون على ذلك كله هو الاستعانة بالله ﷻ، والتوكل عليه بعد استنفاد ما في الوسع، والحرص على المواظبة على صلوات الجماعة والتقرب إليه -تعالى- بالنوافل.

وتعلمتُ أيضًا من تجاربِ حياتي، أنه مهما تعددّت الابتلاءات والمحن، فمع الصبر واليقين، تأتي رحمة الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]، إذ ينبلج مع كل محنة ضياء الفجر، وتتحول المحنة بفضل الله إلى منحة، ربما لا تتحقق في الحياة الدنيا، ولكنها حتمًا متحققة في الآخرة بوعد الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

وبنفسِ هذا القدر من روح التفاؤل للحياة الفردية، أنقلها إلى حياتنا العامة، وأرددّ مع الدكتور أمين الدمري قوله: «لقد عانت

الصحوة الإسلامية منذ عشرات السنين الكثير من ألوان التشويه والاضطهاد من العدو القريب والبعيد، وحَسْبَ سُنَّة الله -تعالىٰ- فإنه مع الصبر والثبات سيأتي الفرج بإذن الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠] (١).

أما عن الصبر في طلب العلم، فقد نصح الإمامُ ابنُ هشام النحوي طلبة العلم بالصبر علىٰ مشاق العلم والتحصيل، إذ هو شرط في نيل المراد العزيز الغالي، فقال:

ومَنْ يصطبر للعلم يظفر بنيله
ومَن يخطب الحسناء يصبر علىٰ البذل
ومَن لم يَذِلَّ النفس في طلب العُلىٰ
يسيرًا يعش دهرًا طويلاً أخا ذُلِّ (٢)

---

(١) د/ أمين الدمري – مقال بعنوان «اليهود والعلو الكبير» (ص:٩٤) مجلة «البيان» عدد ربيع الآخر ١٤٣٠هـ - إبريل سنة ٢٠٠٩ م.

(٢) عبد الفتاح أبو غدة «صفحات من صبر العلماء علىٰ شدائد العلم والتحصيل» (ص:٣٧) مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب - بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

الفصل الأول

تعميق الوعي السياسي وتعميمه بين شباب الصحوة الإسلامية

وهذا يستلزمُ قراءةَ التاريخ الصحيحِ للأحداث المعاصرة التي غيّرت مسار أمتنا الإسلامية ومعالمهَا بسبب الاستعمار الغربي الذي ارتكب -ضمن جرائمه العديدة- ثلاث جرائم كان لها التأثير البالغ في محاولة تحطيم الأمة وإبعادها عن مسارها:

[١] إلغاءُ الخلافة العثمانية(١) عام ١٩٢٤ م، وفرضُ العلمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك اليهودي من طائفة (الدونمة)(٢)،

---

(١) يُنظر: محمد بهجة الأثري «محمود شكري الألوسي –سيرته ودراساته اللغوية» (ص:٥) منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق - الكويت ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(٢) ولم يكن هدف أتاتورك فصل الدين عن الدولة على غرار العلمانية الغربية، بل كان هدفه إقصاء الدين من الحياة العامة... فقد أوقف العمل بالشريعة الإسلامية، وأغلق المدارس والمحاكم الدينية عام ١٩٢٤، واستعاض عنها بالقانون المدني السويسري، والقانون الجنائي الإيطالي، والقانون التجاري الألماني، وجعل العطلة الرسمية للبلاد الأحد بدل الجمعة، وألغى الحجاب، وأصدر أوامره بأن يتم الأذان باللغة التركية بدل العربية، كما بدّل أحكام الإرث الإسلامي، وحرّم تعدد الزوجات، وأباح زواج المسلمة بغير المسلم، وزواج الرجل من أخته في الرضاعة،=

وفرض هذا النموذج على سائر الدول العربية والإسلامية، بكافة أشكال القمع التي وصلت إلى حد الدموية في بعض الأحيان(١)، وتوالت الانقلابات العسكرية في البلاد الإسلامية.

[٢] غرس الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ م وتدعيمها عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا لكي تتفوق على سائر الدول العربية من حولها وتعمل على إجهاض أي حركة إسلامية للنهضة وفق النموذج الإسلامي.

=ومنع ارتداء الطربوش، واستبدل بالحروف العربية اللاتينية... ومورس ضد التيار الديني بينها، والدراسات الموضوعية تبيّن أن الخلافة العثمانية كانت في الشرق طوال خمسة قرون موئل المسلمين، وحامية الإسلام، والحصن المنيع الذي قام بوجه الغرب المتحفّز للاستيلاء على دياره وإخضاعها لسلطانه... فإذا زالت هذه الخلافة، يزول معها الوجود السياسي للإسلام، ويحدث بعدها فراغ في الحياة الإسلامية يُهدّد بملئه بحياة آخري مكانها.

ينظر: محمد بهجة الأثري «محمود شكري الألوسي - سيرته ودراساته اللغوية» (ص:٥) منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق - الكويت ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(١) حسن شافعي: مقال بعنوان: «جدلية الأسلمة والعلمنة في الحالة التركية» (ص:١١٨/ ١١٩) مجلة «المنار الجديد» صفر سنة ١٤٣٠هـ - يناير سنة ٢٠٠٩م.

[٣] تغيير مناهج التعليم في المدارس والجامعات، ومن ثمّ تربية كوادر من الساسة والقادة وفق ثقافته ونظمه، وهيأ لها الفرص للقيادة في البلاد العربية والإسلامية.

ومن ثمّ تشتت الأمة بين النموذجين: الديمقراطي الرأسمالي، والاشتراكي.

فماذا كانت نتيجة الإصلاح من خارج النسق الحضاري الإسلامي ومن خارج مرجعية الأمة المتمثلة بالقرآن والسُّنَّة ؟

كانت النتيجة: ضياع قسم كبير من أبناء الأمة، ورسوخ القُطرية، وبروزُ الولاءات الإقليمية والطائفية، وتمكين اسرائيل[1].

والغرض من تعميق الوعي السياسي هو الاقتناع بالدليل التجريبي التاريخي المعاصر -بعد فشل المشروع القومي- علىٰ أن نهضة أمتنا تستلزم العودة إلىٰ تراثنا الإسلامي، إلتزامًا بالكتاب

---

(١) غازي التوبة «انحطاط الأمم: الاتحاد السوفيتي نموذجًا» (ص:٢٧) مجلة «الوعي الإسلامي» - الكويت جمادىٰ الأولىٰ ١٤١٩هـ أغسطس - سبتمبر ١٩٩٨م.

والسُّنَّة حيث لم نجن من تقليد النظم الأوروبية واستيراد ثقافتها[١].

ومع تعميق هذا الوعي ينبغي تعميمه بين شباب الصحوة الإسلامية لكي يخلق نوعًا من وحدة الرأي في التعليل والتفسير، ومعالجة آثار الغزو الاستعماري عند التخطيط للمستقبل، استئنافًا لخط سير الأمة، وتجديدًا لحضارتها التي أصيبت بكبوة -مهما بلغ عنفها- فإنها عارضة؛ لأن التاريخ يعلمّنا أيضًا أنها اجتازت محنًّا أشدُ من قبل، ولكنها استطاعت التغلّب عليها، واقرؤا جيدًّا غزوات التتار والحروب الصليبية.

يقول الأستاذ عبد العظيم منصور: «وما الحروب الصليبية وأحداثها المروعة عنا ببعيدة وما نشهد نموذجًا لها اليوم... إن الاستعمار الذي تلا الحروب الصليبية، ونعيش مأساته اليوم ليس ولم يكن إلا ستارًا للروح الصليبية...»[٢].

---

(١) يُنظر كتابنا «دور التراث الإسلامي في تجديد حضارة الإسلام» ط دار الإبداع بالإسكندرية ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

(٢) الأستاذ عبد العظيم منصور: «كلمة الله الأخيرة» (ص:٢٤٥، ٢٤٦) المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية بمصر ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م.

والسؤال الذي ينبغي أن يشغلنا جميعا هو: «هل آن أن يدرك المسلمون طبيعة الصراع على مدى قرون بينهم وبين المخالفين؟ إنه صراع بين الإيمان والطغيان، بين الإيمان الذي حمل أمانته نبي الإسلام ﷺ لا لشيء؛ إلا لتحرير الإنسان عن طريق مخاطبة النفس البشرية والضمير الإنساني في كل مكان، يهيب بهما رفض الخضوع لقيم الحياة المادية والمعنوية، ويحررهما من عبودية العباد للعباد، لتبقى العبودية لله وحده، وهذا هو الخطر الداهم على الأنظمة البشرية، وعلى السادة المتحكمين في رقاب العباد»(١).



(١) نفسه.

الفصل الثاني

الوقوف على معالم التحوّل

من الثقافة الإسلامية إلى الثقافة الغربية بوعيٍ أو بغير وعي، فقد أراد بعضُ مُثقفينا عند المطالبة بتقليد المراحل التي اجتازها الغرب أثناء تقدم حضارته، أرادوا جعل ماضي الحضارة الغربية مستقبلًا لنا -العصور الوسطى - عصر النهضة-، فضلًا عما يترتب على التقليد من محو أصالة أمتنا وتفسخها، وهو ما يعارض الشرط الجوهري في أسباب ازدهار الحضارات، إذ لابدّ لكل حضارة من قيامها على دعامات خاصة تُميزها عن غيرها من الحضارات، كالشجرة الباسقة التي تمتد جذورها إلى باطن الأرض لكي تتمكن من الصمود أمام الرياح، وإلا اجتُثَتْ من فوق الأرض.

والمتابع لتاريخ صراع الأفكار في العالم الإسلامي يلاحظ الإصرار على طمس معالم الثقافات الأصلية -وعلى رأسها الدين-

للشعوب المستعْمَرة وسوقها سوقًا -بالرغبة والرهبة ومناهج التعليم- إلىٰ انتحال ثقافة الغرب وتقليدِ حضارته لضمان إسكات أصوات المقاومة التي حاول أصحابها الاحتفاظ بالأصالة ومقاومة الاحتلال بناءً علىٰ مبدأ الولاء والبراء.

وتُمثل فرنسا أسوأ مثال علىٰ ذلك؛ فقد اتبعت أسلوب الاستعمار الاستيطاني -كما فعل اليهود في فلسطين- وأرغمت المسلمين بشمال أفريقيا -تونس والمغرب والجزائر- علىٰ التحدث بالفرنسية بعد محاربتها للغة العربية وهدم المساجد وتعذيب المجاهدين، وقد استطاع الإمام عبد الحميد بن باديس -رحمه الله تعالىٰ- إنقاذ الجزائر من براثنها، وقدمّ نموذجًا فريدًا معبرًا عن إمكان الانتصار إذا استمسك المسلمون بمنهج السلف. بينما كان الفشل مصير مقلـدّي الغرب إذ اتجه «لطفي السيد» إلىٰ وجهـة الليبراليـة والديمقراطية الغربية وغرز كلمات الأمة المصرية والوطن المصري والشخصية المصرية، ودعا إلىٰ تمصير القيم وفي مقدمتها الأخلاق والعادات بعد أن كانت عربية إسلامية...

ودعا إلى نبذ المفاهيم العربية الإسلامية، ووقف على رأس الدعوة المصرية الإقليمية المنعزلة عن العروبة والإسلام، وقد نمت هذه الدعوة من بعدُ واتسع نطاقُها فترة ما بين الحربين وبينما كان لطفي السيد يؤكّد على العزلة عن العروبة والإسلام، كان سعد زغلول يؤكد اللغة الانجليزية.

وكان هناك رجلان آخران يعملان في حقل التعليم، أحدهما «دنلوب» الذي قنن أخطر القوانين التي ما تزال آثارها سارية إلى الآن في العالم العربي كله، وقد كان مبشرًا اسكتلنديا وقسيسًا، وقد اختاره «كرومر» لهذا العمل فسيطر عليه سنوات طويلة امتدت حتى أوائل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م وكان قد عُيّن مفتشًا للتعليم سنة ١٨٩٧م ثم أصبح مستشارًا للوزارة خلال سبعة عشر عامًا وكان المستشار الإنجليزي أقوى من الوزير المصري.

وكان من أبرز أعماله: إزالة اعتقاد الشباب المسلم في كتاب الله، ومحاربة شعور الطلبة وإحساسهم الوطني والديني، واضطهاد كل طالب يظهر ميلًا أو عاطفة نحو بلاده، وكان يُحرِّم على كل معلم

أن يذكر عن مصر وتاريخها ومجدها شيئًا، كما يحرم على الطلبة الصحف الوطنية وتاريخ الإسلام.

وكان يُدَّرس جميع المواد باللغة الإنجليزية ومنها الرسم والكيمياء والرياضيات والتاريخ بحيثُ لا يُتاح للطالب فرصة لدراسة اللغة العربية، وقد اضطهد أساتذة اللغة العربية وعلماء الأزهر.

والمعروف أن «دنلوب» و«كرومر» قد نقـلًا منـاهج مدارس الإرساليات التبشيرية وطبقاها في المدارس المصرية وكان أبلغ اهتمامهم محاربة اللغة العربية والإسلام ووحدة العروبة وإحلال مفاهيم إعلاء الإقليميات واللغات الأجنبية وبطولات الغربيين وفكرهم بدلًا منها.

أما الرجل الثاني فهو «زويمر» كبير المبشرين الذي حملت كتاباته الكثير من الشبهات والمغالطات التي أراد بها إثارة الشكوك في نفوس المسلمين والعرب، وكان «زويمر» من أكبر دعاة تمزيق الوحدة الجذرية بين العروبة والإسلام... وقد اهتز طربًا لسقوط السلطان «عبد الحميد».

وقد امتد دور "زويمر" و"دنلوب" و"لطفي السيد" بعد الحرب العالمية الأولى وزاد قوة، وكان من أهم أهدافه العمل على تعميق القطيعة بين العرب والمسلمين وبين المصريين والعرب وبين الترك والعرب وتشويه مفهوم الإسلام الفكري والاجتماعي والسياسي[١].

ولكن كان هناك اتجاه أصيل يدعو إلى الوحدة الإسلامية الجامعة بين العرب والترك من ناحية، وللحركة الوطنية التي حمل لواءها مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش والتي كانت تضع مفهومها في ضوء الإسلام وتحدد موقفها كجزء من حركة اليقظة العربية الإسلامية الممتدة[٢].

---

(١) أنور الجندي: «العروبة والإسلام» (ص:٢١٧-٢٢٠)، باختصار كما احتضن لطفي السيد الدعوة إلى إعلاء العامية ونبذ العربية الفصحى، وجرى في هذا الاتجاه سلامة موسى وكثيرون من بعد. (ص:٢٢١).

وكان اللورد «كرومر» هو قائد الدعوات التغريبية، وهو أكبر عدو مقاتل في وجه الجامعة الإسلامية. (ص:٢١٤).

(٢) أنور الجندي: «العروبة والإسلام – الرد على ساطع الحصري وميشيل عفلق وانطوان سعادة» (ص:٢١٦) ط. دار الاعتصام - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

وقد صوّرت الدكتورة عائشة عبد الرحمن التحّول من الثقافة الإسلامية إلىٰ ما أطلقت عليه اسم «الغُربة الفكرية والثقافية» بقولها: «المرحلة التي صنعت الحضارة الإسلامية كان العالم الإسلامي من أقصىٰ المشرق إلىٰ أقصىٰ المغرب من غير مؤتمر ومن غير جامعة عربية ومن غير جامعة إسلامية ومن غير المؤتمر الإسلامي في جدة، كان كلنا ندرس علىٰ منهاج واحد في مرحلة النشأة من المغرب للمشرق... نبدأ بالقرآن والعربية وعلوم الدين»(١).

وكتبت في مقال آخر لها لتحليل هذا التحول تقول: «لقد كان من الطبيعي أن تتجه الأمة العربية بكل طاقاتها إلىٰ معركة التحرير، وأن تغفل عن الموقع الفكري، فانكشف الميدان لغزو فكري جائح، أعانَ عليه ما أورثتنا المرحلة الماضية من تصدّع ثقافي أثرًا لتفاوت البيئات الفكرية والتعليمية التي نشأ فيها

---

(١) عبد الكريم الخطيب: «الإسلام في مواجهة العصر وتحدياته» (ص:٤٧-٤٨) ط. دار الفكر العربي ربيع الأول سنة ١٣٩٢هـ - مايو سنة ١٩٧٢م.
وتعلّل الدكتورة عائشة عبد الرحمن الغربة الفكرية والثقافية إلىٰ المذاهب الأجنبية التي وفدت علىٰ المنطقية، وسادت الغربة الفكرية بين أبناء الجيل الواحد (ص:١٧٤).

جيلنا، وتلقىٰ منها زاده العقلي والوجداني. فنحن جميعًا أبناء جيل أَعْوَزَهُ التعاصر الثقافي في مرحلة التلّقي والتكوين والتأثر: فينا من تلقّىٰ زاده الأول من نبع شرق صميم حصنّه ضد تيارات الفرنجة الوافدة، وفينا من لا زاد له إلا الفكر الأجنبي، وقد أمضىٰ مرحلة الحضانة العقليـة والتكوين النفسي، في بيئةٍ عَزَلَتْـهُ عن وجود أمته»[١].

ويتضح مما تقدم أن أمام الصحوة الإسلامية مهمة ضخمة لكي تقف الأمة علىٰ أوائل طريق النهضة المنتظرة ولاستئناف حياتها في ظل شريعة الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ بعد قيام الاستعمار الغربي بقطع صلة الأمة بتراثها الإسلامي وتنفيذه لحملة غزو ثقافي لم ير له التاريخ مثيلًا.

وصف أستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان الغزو الثقافي بقوله: «كان الغزوُ الثقافي شديدَ الوطأةِ ليس علىٰ مظاهر الحياة الإسلامية

---

(١) الدكتورة عائشة عبد الرحمن، مقال بعنوان «تراثنا بين شرق وغرب» (ص:٢٨) بكتاب «التراث العربي – دراسات» – جمعية الأدباء – القاهرة ١٩٧١م.

فحسب؛ بل على عقول المسلمين ومناهِجِهِم التربوية.. وغير ذلك من التيارات التي أغلقت المنافذ على تطوّر الشعوب الإسلامية ورقيِّها وتقدُّمِها، ومن بين أمثلة هذا الغزو الفكري، انقضاض التيارات المادية والوجودية والبراجمانية على الفكر الإسلامي...

وكذلك ما تلقّاه المسلمون من فلسفة إسلامية زيفاء لا يزالون يولونها عنايتهم إلى عصرنا هذا»[١].

وبكلمات مختصرة نعود فنقول: أن مهمة الصحوة الإسلامية تتبع قنابل الغزو الثقافي لإبطال مفعولها بوضع الخطط التي تزيل آثارها القاتلة للأجيال القادمة، ووضع الخطط البديلة الكفيلة بإعادة الأمة إلى أصالتها. وفي تصوري فإن مشروع النهضة المرجوة يتلخص في المقترحات الآتية:

■ خطة طموحة لمحو الأمية تتبناها جمعيات أهلية ويقوم على إدارتها رجال وشباب وشابات أكْفَاء وتتوزع في الأحياء الشعبية

---

(١) د/ محمد علي أبو ريان: «أسلمة المعرفة – العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية» (ص:٦) دار المعرفة الجامعية إسكندرية سنة ١٩٩٧ م.

والنجوع والكفور والقرى لإنقاذ الأجيال الجديدة من التردي إلى ظلمات الجهل.

■ إحياء التراث الإسلامي وإحلاله في مراحل التعليم المختلفة بدلًا من التراث الغربي الثقافي الذي فُرض على الأمة أثناء الاستعمار الغربي طوال القرنين الماضيين، مع ضرورة الاهتمام بتقديم مذهب السلف -بصفة خاصة- مدعمًا بأدلته الشرعية والعقلية، حيث شُوهت صورتُه، وأُسيء إلى علمائه بواسطة المستشرقين من اليهود والنصارى وتلاميذهم.

■ التوسع في تجربة البنوك الإسلامية للتخلص من آثار النظام الربوي الذي يربطنا بعجلة الغرب الاقتصادية ويخضعنا للشروط المجحفة لمؤسساته الكبرى كصندوق النقد الدولي.

■ تحديث الجيوش وإمدادها بأقوى الأسلحة وأكثرها تطورا لتصبح قوة رادعة لأي دولة تبغي غزونا واحتلال أراضينا وهناك تفاصيل أخرى ندعها لعلماء السياسة كاستغلال مواردنا الاقتصادية

في فرض شروطنا، والدفاع عن قضايانا وكان قطع البترول عام ١٩٧٣م عن الغرب حينذاك نموذجًا ممتازًا ويمكن تكرار التجربة بكياسة وحذر لدعم قضايانا -لاسيما فلسطين ومدينة القدس بصفة خاصة-، والدفاع عن الأقليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا بالإضافة إلىٰ استخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية، وقد نجح في مواجهة الدانمارك بعد نشر الرسوم المسيئة للرسول ﷺ.

■ العناية بالتعليم والبحث العلمي وتخصيص الميزانيات المناسبة لهذا الغرض مع اللحاق بالعصر في مجال التقدم العلمي التكنولوجي، ولدينا بحمد الله الكوادر المؤهْلة بالجامعات ومراكز البحوث التي لا ينقصها إلا الإمداد بالمال وتوجيهها بخطط هادفة في مجالات البحوث الزراعية والصناعية والعسكرية والطبية وغيرها.

وباختصار:

استئناف الحياة الإسلامية التي قطعها الاستعمار وزبانيته.

يقول الأستاذ عبد العظيم منصور: «إن استئنافَ حياةٍ إسلاميةٍ جديدةٍ يحتاج إلىٰ تربيةٍ جادةٍ مخلصةٍ عن طريق تلقي أحكامِ الإسلامِ وإدراكِها وفهمِها والعمل بها والتكيف بها واتخاذها مستوىٰ أسمىٰ للسلوك والتصرفات والمعاملات اليومية المتكررة، فإذا استطعنا خلق جيل عقائدي علىٰ هذا النحو، فإن شرارة الإيمان ستنبعث من جديد، وستشهد البشرية من جديد -إنسان الإسلام- الذي كان ظهوره وقاية للبشرية وعصمة لها من التصدع»[1].



---

(١) الأستاذ عبد العظيم منصور: «طريق العودة» (ص:٩٧) الكتاب الثالث والسبعون -المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية بمصر- ١٣٢٩هـ - ١٩٧٢م.
شعبان سنة ١٤٢٧هـ - سبتمبر سنة ٢٠٠٦م.

في حقل التعليم ومناهجه:

تتشابك خيوط تجاربي وهي جامعةً بين طلب العلم والسعي لتحصيل الرزق، مع الحرص على تصحيح المفاهيم التي نشأ عليها جيلي وكانت مخالفة لعقائد الإسلام الصحيحة بسبب مناهج التعليم التي وضعها القسيس الانجليزي «دنلوب» في مدارسنـا، والمنـاهج التي أُسست عليها جامعـة «فـؤاد الأول» عـام ١٩٠٨م -جامعة القاهرة فيما بعد- وسارت على منوالها باقي جامعاتنا، وهي من وضع المستشرقين وتلاميذهم، الذين صبغوا عقول الأجيال تلو الأجيال بصبغة الثقافة الغربية، إلا من رحم الله ﷻ.

يقول مؤلف كتاب «دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة»: «وتولى المستشرقون وغيرهم من الأساتذة الأوروبيين إلقاء الكثير من المحاضرات في هذه المؤسسة الناشئة... وكان بعضهم يقوم بتدريس الفلسفة الإسلامية والأدب العربي... وكان لفرنسا نفوذها عن طريق المستشرقين «لوي ماسينيون» و«جاستن فيت»، وتوالي

العديد من الأساتذة الفرنسيين على شغل منصب أستاذ الأدب الفرنسي. وقد قام كل من «نالينو»، و«فيت»، و«ماسينيون»، و«كريزول»، و«سناوك»، و«هرجرونج» بمعاونة حكوماتهم على محاربة المسلمين أو السيطرة عليهم»[١].

وقامت جامعة فاروق -الإسكندرية حاليًا- بالتركيز على دراسة الحضارة الإغريقية الرومانية والتاريخ الأوروبي الحديث وكانت جامعة عين شمس تعكس أوضاع العصر بإتباع بعض التوجهات الأمريكية وكان «الأستاذ الدكتور/ أبو الفتوح رضوان» من بين أولئك الذين عادوا معهم بنظريات التربية المتقدمة بعد دراسته بكلية المعلمين بجامعة كولومبيا. ومنذ الخمسينات فصاعدًا لقيت الجامعة الأمريكية اهتمامًا من الدوائر الرسمية المصرية والأمريكية معًا.

---

(١) دونالد مالكولم ريد: «دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة» (الصفحات: ٢٣،٧٤،٧٧) ترجمة إكرام يوسف - مكتبة الأسرة بالقاهرة سنة ٢٠٠٧ م.

وكان رئيس الجامعة الأمريكية السابق «جون بادو» عضوًا سابقًا في بعثة تبشيرية ويجيد الحديث بالعربية وعاد المصريون الذين تخرجوا في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية إلى جامعة القاهرة حاملين في أذهانهم النموذج الأمريكي[1].

أما المفكرون أمثال «طه حسين» و«علي عبد الرازق» و«إبراهيم عبد القادر المازني» و«العقاد» فهم ينتمون إلى نفس جيل «ماهر» و«النقراشي» و«مكرم عبيد» و«هيكل». ورغم أن «توفيق الحكيم» يصغرهم قليلًا إلا أنه غالبًا ما يرتبط بهم أيضًا. وكان هذا الجيل من الأدباء أنتج بالفعل أفضل أعماله. وتوضح إحدى الدراسات العلمية أنهم خانوا الليبرالية العلمانية التي اعتنقوها في شبابهم بعودتهم إلى الكتابة في الموضوعات الإسلامية، بينما ترى دراسة أخرى أنهم التحفوا بعباءة الإسلام لمجرد التغطية على استمرار علمانيتهم... وكان «لويس عوض» يطلق على

(١) نفسه (صفحات: ٢٠١، ٢٠٥، ٢٨٩).

كتاب جيله «جيل الجامعة» فمعظمهم درس بالجامعة المصرية في الثلاثينيات[1].

كما ينتمي إلى نفس الجيل الروائي «نجيب محفوظ» و«محمد مندور» وكذلك «إبراهيم عبده»[2] أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة الذي هاجم بعنف نظام عبد الناصر ففصل من وظيفته، ويصغر هؤلاء قليلًا، الكتاب من خريجي الجامعة أمثال «عبد الرحمن الشرقاوي» المشهور براويته الاشتراكية «الأرض»، و«يوسف إدريس» الذي كتب أيضًا عن أحوال الفقراء.

---

(١) نفسه (ص:٢٣٤).

(٢) علق على الميثاق الوطني بسخريته اللاذعة كالعادة: «... كتاب مقدس هو «الميثاق» كتاب الفكر الثوري الذي بلغ عدد النسخ التي طبعت منه فيها يقال أكثر مما طبع من القرآن والإنجيل في عدة أجيال، ودرس في المدارس والجامعات، وأصبح مادة للسقوط والنجاح، ولم يحظ القرآن الكريم بهذه الميزة (ص:٣٥٨).

كذلك حيث أبدا مشاعره في كتابه اللاذع «الثور في متحف الخزف»، وهاجم حكم عبد الناصر في عدة كتب مثل «رسائل من نفاقستان» (ص:٣٠٠).

تصحيح بعض المفاهيم:

كان من دأب أبواق الغرب وتابعيه قلب الحقائق ونشر أراء ونظريات مخالفة للواقع، وهي أقرب إلى الأباطيل، ولكن مع تكرارها والإصرار على بثها بكل الوسائل المتاحة كالكتب والمقالات والمحاضرات ومناهج التعليم ووسائل الإعلام فتفعل في أذهان المتلقين فعل السحر أو المخدر بحيث يصعب رفضها أو حتى مناقشتها. وبخاصة بواسطة العامة أو متوسطي الثقافة ممن لم يألفوا استخدام ملكات النقد وإعمال العقل لفرز المعلومات التي يتلقونها، ولا نستثني أيضًا أصحاب المستوى العالي من الثقافة الذين تشربوا بهذه الأفكار الجاهزة في سن مبكرة ورسخت في العقل الباطن ومن ثم يتعذر التخلص منها إلا بصعوبة، وبعد إهدار سنوات غالية من عمر الإنسان.

وسنعرض للقارئ أربع نظريات مخالفة للواقع حتى تتضح لنا الحقائق، ومن ثم نصحح أحكامنا، وننصح المتغربين بإعادة النظر فيما اعتقده وسلّموا بصحته.

١- نظرية تخلي الغرب عن دينه، أو استمرار العداء له منذ القرون الوسطى: بينما يتضح من الدراسة الأمينة، ورصد الواقع المعاصر، إن هناك صحوة دينية في الغرب، وهي أوسع مدى وأبلغ أثرًا من الصحوة الإسلامية التي مازالت في مرحلتها الأولى.

٢- اعتماد الفلسفة الغربية على أساس عقلاني، لا على أساس ديني:

وسيتضح خطأ هذه المقولة، إذ ثبت أن جذور هذه الفلسفة تمتد في أعماقها على أساس مسيحي.

٣- انصراف الغرب وإهماله لتراثه القديم: بينما سيتبين لنا أنه مازال يتبنى هذا التراث.

٤- تبني المشروع القومي بدلًا من الجامعة الإسلامية طريقًا للنهضة: وسيتضح كيف فشل المشروع القومي عند التطبيق؛ لأنه منقطع الصلة بتراثنا الإسلامي.

وسنتناول كل واحد منها بالشرح والتفنيد، والله المستعان وعليه التكلان.

١- الصحوة الدينية في الغرب[١]:

إن ما يلاحظه المراقبون من طابع الصبغة الدينية للسياسة الغربية فإنها في الحقيقية ليست وليدة اليوم، ولكن الظاهرة بدأت منذ عام ١٨٩١م، حيث أخذت الكنيسة علىٰ عاتقها التدخل في الأحداث وتأدية وظيفتها التاريخية وإعلان رأيها في مشاكل المجتمع، وظلت أنشطتها تتمدد حتىٰ أحدثت ما يشبه الثورة علىٰ المفاهيم العلمانية هناك، بواسطة حركاتِ مُعَاوَدَةِ تنصير المجتمعات.

وربمـا ترجع تاريخيًـا إلىٰ حركة الإصـلاح الديني في عصر النهضة، التي قادها الراهب الثائـر «سافـونارولا» فمهد بنشاطه الطريق لـ«مارتن لوثر».

وقد أخذت الكنيسة الكاثوليكية تباشر نشاطها الدولي منذ عام ١٩٢٩م، وأصبحت مدينة الفاتيكان أشبه بحكومة إقطاعية في

(١) هذه المقالة من كتابنا بعنوان «المنهج السلفي؛ لا الحداثة... هو طريق النهضة» ط. دار العقيدة للتراث - باكوس - الإسكندرية ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

المقر البابوي، فباشرت مهامها عن طريق البعثات الدينية في آسيا، وشجعت قيام نقابات في وجه النظم الاشتراكية والشيوعية، وهي أعمال ذات صبغة سياسية، ومن أهدافها أيضًا التصدي للمد الإسلامي وتنصر العالم[1].

كما تحرص الكنيسة على نشر رسالتها عن طريق معاهد تابعة لها، ويحرص أعضائها على نشر مبادئ المسيحية لدى أصحاب المراكز الرئيسية في المجتمع، والرغبة في الضغط على الهيئات الحاكمة.

ومن الأمثلة على نشاط الحركة الكاثوليكية، الانعقاد السنوي لمنظمات الكاثوليكية الدولية الذي ينعقد بانتظام منذ عام ١٩٢٧م لدراسة المسائل المتعلقة بالحياة الكاثوليكية الدولية.

---

(١) يقول القس إكرام لمعي: «لم يحدث في عصر من العصور أن كان الدين محورًا للاهتمام للدرجة التي أختلط الدين بالأسس والمبادئ التي تبني عليها معظم النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كعصرنا الحالي» (ص:٧) من كتابه «الاختراق الصهيوني للمسيحية» ط. دار الشروق ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، ويقول أيضًا: «أصبح الدين هو الملجأ الأخير الثابت الذي تتعلق به حضارات تنهار، وحضارات تريد أن تستيقظ من جديد»، وربما يعني بذلك المقارنة بين الخصائص الغربية والخصائص الإسلامية.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد ازدهرت حركة الأصولية المسيحية، حيث تواصل توجيه رسالتها في الوعظ الإنجيلي بواسطة الكنائس المرئية، ونجح كبار رجال الدين هناك في تعميد أكثر من ٦٠ مليون أمريكي -أي: ولدوا ثانية-.

كذلك ازدهرت حركة اليمين المسيحي الجديد -أو السلفية الأصولية الإنجيلية- ذات الصبغة السياسية، وكان لها صلات قوية بتوجيه سياسية أمريكا نحو إسرائيل.

وقد أصاب الرئيس «علي بيجوفيتش» في مقارنته بين الصحوة الدينية في الغرب ونظيرتها في العالم الإسلامي، مبديًا دهشته بسبب فزع أوروبا من الصحوة الإسلامية فقال رحمه الله تعالى: «إن العودة إلى الدين أصبحت ظاهرة عالمية في كل مكان قمع فيه الشيوعيون الدين على مدي خمسين إلى سبعين سنة.

نعم هناك أسلمة في البوسنة، وهي صحوة إسلامية بقدر ما فيها من صحوة أرثوذكسية وكاثوليكية.

ولكن الفرق هو أن عودة المسيحيين إلىٰ دينهم لم تلفت انتباه أوروبا المسيحية -وهو أمر أفهمه ولا ألومها عليه- أما عودة المسلمين إلىٰ دينهم فقد اعتبرته أمرًا مفزعًا!!![1].

وسبق لي أن عرضت من قبل بكتاب «حضارة العصر.. الوجه الآخر» وقد صدر قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، قضية إحياء الدين وتوظيفه سياسيًا في الغرب، تلخص العرض في بيان علامات الصحوة الدينية هناك، التي كانت مستورة وراء السلوكيات الدبلوماسية التي تظهر غير ما تبطن.

وعقب أحداث سبتمبر ظهرت علىٰ السطح بشكل سافر علامات العداء للإسلام والمسلمين، فبدأنا نتنبه إلىٰ الحركات والأنشطة الدينية التي كانت تتحرك في أعماق المجتمعات -سواء

---

(١) مجلة «المختار الإسلامي» القاهرة ربيع الأول ١٤٢٥هـ - مايو ٢٠٠٤م (ص:٩٥).
ويفسر الدكتور «مراد هوفمان» الخوف من الإسلام منذ التوسيع المذهل للإسلام في القرنين السابع والثامن الميلاديين، كما كانت تجربة الحروب الصليبية مع الشرق صدمة تبعها نتائج عديدة (ص:٦٨، ٧٢) من كتابه «الإسلام في الألفية الثالثة - الدين الصاعد» مكتبة الشروق ٢٠٠١م.

في أوروبا وفي أمريكا، ورأينا من واجبنا إعادة النظر فيها وعرضها بشكل أشمل، لعلها تبث فينا يقظة دينية مقابلها، وعلى مستواها.

ومن العلامات التي تستوقف الباحث، أن الحركة السلفية الأصولية الإنجيلية -أو اليمين المسيحي الجديد- ظهرت في أمريكا مع بدايات القرن العشرين، وهناك منظمة تعلن بصراحة وقوة أن العهد القديم يتضمن الخطة الصالحة لإقامة مجتمع مثالي، ولا بد من إقامته حتى لو اقتضي الأمر -حسب عقيدتها- إحراق مجتمع المفسدين والكفار والعلمانيين لإقرار حاكمية الرب، واتسعت هناك دائرة الوعظ الإنجيلي على الشاشة الصغيرة.

وفي أوروبا، أعلن بابا روما السابق، ضرورة توحيد الصفوف عندهم للتصدي للمد الإسلامي وتنصير العالم.

ولذلك، فإني في هذه المقالة، أعود فأعالج نفس القضية من منظور دراسي، يبحث عن أعماق التدين في الغرب الذي ظهر سافرًا الآن، بعد إفلاس «العلمانية»، كما عبر بذلك الباحث الفرنسي «جيل كيبل».

يقول «جيل كيبل» تحت عنوان «أوروبا أرض رسالة وإرسالية»:

«ينفتح الربع الأخير من القرن العشرين، في أوروبا الكاثوليكية على مفارقة، إذ يبدو المجتمع وكأنه لم يكن يومًا على هذا القدر الكثيف من الدنوية العلمانية ومن اللامسيحية، ومع هذا فإن حركات معاودة تنصيره تنبعث وتتولد في كل مكان.

فهنا تعمل جماعات «الهبة اللدنية» على جعل خريجي الجامعات يكتشفون نفحة الروح القدس، بينما تكاثر جماعات سواها عمليات الشفاء العجائبي المعجز.

وهناك تعبئ منظمات مثل «التناول والتحرير» -التي تريد إعادة خلق مجتمع مسيحي بعد «إفلاس العلمانية»-، مئات آلاف الشبان الإيطاليين، في حين تتكون وتتهيكل في أوروبا الشرقية التي لم تعد سوفياتية، حركات اجتماعية وأحزاب تجعل، بعد أربعين سنة من الإلحاد الرسمي، من التأكيد على كاثوليكيتها، معيار هويتها السياسية»[1].

أما المناسبة لضم هذه المقالة للكتاب، فهي أيضًا للرد على

---

(١) جيل كيبل: «ثأر الله -الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث» (ص:٥٩) ترجمة: نصير - دار قرطبة - ليماسول ط. ١٩٩٨م، وينظر بحثه أيضًا تحت عنوان «انحلال سمر العلمانية والمفاصلة الكاثوليكية» (ص:٦٧ -٩٠).

الحداثيين الذين يطالبوننا بهدم العقائد والأعراف والمقدسات في سبيل تحقيق مشروعهم «النهضوي» وهو في حقيقته «تخريبي مدمر» في الوقت الذي يعيش في الغرب -وهو مثلهم الأعلى- صحوة دينية حقيقية معاصرة، عبرت عنها «كارين آرمسترونج» - أستاذة الأديان المقارنة بجامعة اكسفورد- بقولها: «إن الدين أصبح من جديد قوة يعمل لها حساب، وانتشرت صحوة دينية واسعة لم تكن تدور بخلد الكثيرين في الخمسينات والستينات، إذ كان العلمانيون يفترضون أن الدين خرافة تجاوزها الإنسان المتحضر العقلاني، وأنه على أحسن الفروض مجرد نشاط فردي عاجز عن التأثير في الأحداث العالمية».

وتمضي في وصف التغييرات الجديدة في الحياة الدينية بأنها أشبه بالثورة، فتقول: «فربما هجرنا إلى الأبد أسلوب النظر القديم إلى ديننا وثقافتنا، أو أديان الآخرين وثقافاتهم. ولقد شبه بعضهم التأثير المرجح لذلك بالثورة التي أحدثها العلم في نظرة الرجال والنساء إلى الدنيا على امتداد العالم بأسره»[١].

---

(١) «محمد ﷺ» كارين آرمسترونج (ص:١٥) ترجمة د. فاطمة نصر و د. محمد عناني ط. سطور ١٩٩٨م.

ألا يحق لنا بعد هذا كله أن نبحث بالمنهجين الوصفي والتاريخي مكانة الدين في الحياة السياسية والاجتماعية هناك، بعد أن خدعونا فقالوا: إن الغرب تخلي عن دينه!!؟

وسنعثر في هذه المقالة على نقيض هذه المقولة، إذ روج الغرب لشعار «فصل الدين عن الدولة» عقب استعماره لبلادنا، ورددته أبواق دعاياته، وألح عليه بعض كتابنا وأصحاب الرأي فينا من المفتونين بالغرب، وأصبح شعار العلمانيين الأشهر، لاسيما منذ صدور كتاب علي عبد الرزاق «الإسلام وأصول الحكم» وبعد أن حقق الغرب هدفه الأكبر بتحطيم الخلافة العثمانية[1] وأصيب

---

(١) يقول «جان بول رو»: «لم يكن القضاء على الدولة العثمانية إلا مظهرًا من مظاهر الهجوم العام الذي يشنه الأوروبيون على الدول الإسلامية، ومن جزر الفلبين إلى قلب إفريقيا، عمل الرجل الأبيض على بسط سيطرته على الرجل المسلم، وفرض عليه مفاهيمه في الوجود وطرق معيشته وتفكيره، ومخططاته وتكتيكه» (ص:٥٦) من كتاب «الإسلام في الغرب» تأليف «جان بول رو» - تعريب «نجده هاجر» و«سعيد العز» - المكتب التجاري - بيروت نوفمبر ١٩٦٠م.

ويلخص طريقة وسائل الإعلام، بما قاله الشاعر الألماني «جوته»: «لا يعني إلا أن أتذكر هؤلاء المعارضين الذين إذا ما أرادوا شرًا بأحد فإنهم يشوهونه أولًا، ثم يحولونه إلى وحش تجب محاربته» (ص:٧٩) المصدر نفسه. =

أغلبنا بما يشبه التنويم المغناطيسي، إلى أن استيقظنا على قعقعة السلاح وإعلان تجدد الحروب الصليبية على لسان الرئيس الأمريكي في وصفه للحرب على العراق في مارس ٢٠٠٣م بأنها «صليبية»(١).

وأخذت أستعيد قراءة ما كتبه الدكتور «حامد ربيع» رَحِمَهُ ٱللَّهُ

=ويذكر الدكتور «مراد هوفمان» أن وسائل الإعلام تعمل جاهدة على إشعال المزيد من نار الحقد وتثبيت الأحكام المسبقة ضد الإسلام وترسيخها في عقول الناس. (ص:٧٨) من كتاب «الإسلام في الألفية الثالثة - الدين الصاعد» مكتبة الشروق ٢٠٠١م.

(١) وقد سبقه الرئيس «كلنتون» الذي قاد أمريكا في حرب ضد الإسلام (مقال بعنوان: ما هو الخطر الأخضر)- بقلم «ليون هدار (ص:١١٧) من كتاب «الغرب والإسلام» تقديم وتحليل «منى ياسين» ومراجعة د/ «محجوب عمر» - دار جهاد بالقاهرة - فبراير ١٩٩٤م.

ويرى المؤلف في موضع آخر من مقالته أن الحركة الإسلامية لا تعادي الغرب؛ لأن انبعاث الإسلام هو رد فعل للحيرة والقلق الناجمتين عن الحداثة وتحد لنظم القمع والفساد، إن الإسلاميين مثل المسيحيين خلال عصر الإصلاح، يحاولون الوصول مباشرة لكلمة الله بحرفها، وأن يوفروا المشروعية للمطالبة الشعبية بتغيير مجتمعاتهم. (ص:١٢٥) نفسه.

كذلك يشير إلى إلغاء الانتخابات في الجزائر سنة ١٩٩٢ والقمع السياسي العنيف الذي أعقب ذلك هناك، وفي تونس، هذا القمع الذي رحب به الغرب وفسره الكاتب بأنه في إطار الحملة الصليبية ضد الإسلام السياسي. (ص:١٢٩) نفسه.

الذي درس تاريخ الكنيسة بعناية، وأثبت أن ما زعمه الغرب من الفصل بين الدين والدولة لم يتحقق إلا في العصور الوسطى، ثم لفترة استثنائية أثناء الثورة الفرنسية.

ثم بطل العمل بهذا المبدأ منذ أعلن البابا الكاثوليكي «ليون الثالث عشر» في عام ١٨٩١م عن الأشياء الجديدة، ومؤداها التعبير عن إرادرة الكنيسة في الأحداث وتأدية وظيفتها التاريخية بأساليب جديدة، وإعلان رأيها بإيمان وثقة في مشاكل المجتمع، وسرعان ما باشرت الكنيسة وظيفتها في:

١- الأحزاب الكاثوليكية.

٢- النقابات الكاثوليكية.

٣- الجمعيات الكاثوليكية.

٤- الجامعات الكاثوليكية.

وكلها تملك استقلالًا حركيًا مع اتفاقها مع الكنيسة في أهداف مشتركة[(١)]، ويزيد الدكتور «حامد ربيع» القضية إيضاحًا بقوله: «الكنيسة تعلن صراحة عن أنها تؤمن بأن عليها وظيفة سياسية لا بد أن تؤديها من خلال منطلقات الصراع اليومي.

والحاخامات اليهودية تعلن أن وظيفتها أساسًا وظيفة سياسية، بل إن منطلق تلك الوظيفة هو القيادة الجماهيرية.

الجيوش العصرية تعرف أيضًا رجال الكهنوت، مسيحيين كانوا أم يهود، الذين يرافقون قواتهم دفاعًا عن مبادئهم القومية ودون أن يعني ذلك سوى تأكيد الارتباط بين الدين والسلطة»[(٢)].

---

(١) د/ حامد ربيع «سلوك المالك في تدبير الممالك» تأليف ابن أبي الربيع - تحقيق وتعليق د/ حامد ربيع (١/ ٤٢) دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
ويقول أيضًا: «الثورة الفرنسية لم تستطع أن تستأصل الوجود الكاثوليكي من الحياة الدينية، وعادت الكنيسة لتؤكد أن وظيفتها السياسية أبدية لا يمكن أن تختفي». (١/ ٤١).

(٢) ويرى «جيفري لانج» أن تعبير علمانية الغرب، تعبير خاطئ ويجانبه الصواب تمامًا، ويدلل الدكتور «مراد هوفمان» على ذلك بتعانق الدين والدولة في ألمانيا كمثال، فهناك أعياد وإجازات دينية، وهناك جمعيات دينية تحظى باعتراف الدولة وحمايتها،=

وربما كان الدكتور «حامد ربيع» هو أول من تنبه -وهو الخبير بتاريخ الكنيسة في الغرب- إلى أن العلمانية لم تطبق عمليًا إلا لفترة استثنائية.

كما بين أن الشعار الذي رفعة العلمانيون لإبعاد الدين عن النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بمقولة: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» الذي رفعته الثورة الفرنسية، ولم يدم طويلًا أو يستمر تنفيذًا وعملًا، إذ بمتابعة تاريخ هذه الثورة اتضح أنها عندما قامت على أساس الشعار العلماني أي: «تقييد نطاق الدلالة السياسية لكل ما له صلة بالمفاهيم والأوضاع الدينية» فإن مثل هذا التصور إنما يعبر عن وضع استثنائي وفترة مقيدة من حيث دلالتها عندما نتذكر حقيقة ما سبقها وما لحقها من أحداث.

=وتحصّل الجهات المالية الحكومية ضريبة الكنيسة من أجل مساندتها، ويقوم مدرسون دينيون بتدريس مادة الدين في المدارس الحكومية، كذلك يتم الأخذ بالقسم بالله أمام المحاكم وفي القوات المسلحة، كما يتم توظيف رجال الدين بهذه القوات، وتجد على خرائط الفصول الدراسية بالمدارس المسيح مصلوبًا. (ص:١٠١) من كتابه: «الإسلام في الألفية الثالثة... ديانة في صعود» - مكتبة الشروق ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

ومن هذه الحيز الضيق الاستثنائي في تاريخ الكنيسة في الغرب، سُجِّل رد الفعل الخاطئ لدى المستغربين عندنا فقال مستطردًا: «الثورة الفرنسية أحدثت القطيعة التي لم تعرفها التقاليد العربية، إلا فقط خلال القرن العشرين، وهو حقيقةً رد فعل فاشل لفهم خاطئ لحقيقة العلاقة بين القيم الدينية والقيم السياسية»[(١)].

وهذا ما دفعني إلى استعراض مفصّل لتاريخ الكنيسة الكاثوليكية وعودتها إلى أداء دورها السياسي الدولي، وكذلك إلقاء الضوء على الصحوة الدينية في أمريكا، وذلك وفق الترتيب التالي:

أولًا: الإصلاح الديني في تاريخ أوروبا في عصر النهضة ودوافعه الحقيقية.

ثانيًا: دور الكنيسة الكاثوليكية ونشاطها الدولي.

ثالثًا: توكيد الهوية في أمريكا «الأصولية المسيحية».

---

(١) نفسه (١/ ٣٩).

أولاً: الإصلاح الديني في تاريخ أوروبا، في عصر النهضة ودوافعه الحقيقية:

جاء عصر النهضة في أوروبا بتغيرات أشبه بالإعصار العنيف ليقتلع كافة النظم والقيم التي سادت في العصور الوسطى فأصابت في اجتياحها للمجتمعات التقاليد بالانهيار، كإقبال الناس على الإسراف في المقامرة، وعدم التقييد بالروابط الزوجية، ومخالفة الأفراد أوامر الحكومات، ولم تسلم الكنيسة وبعض البابوات من الأحوال الشاذة المخالفة لقواعد الدين والأخلاق[1].

وبحثًا عن طريق الخلاص اتجه الناس أولًا إلى الناحية الدينية، فظهرت في ايطاليا وفي خارجها حركات دينية تصوفية لإصلاح المجتمع دينيًا وخلقيًا وسياسيًا، مثل حركة «بيترو والدو» الذي عمل هو وأنصاره على وجوب إرجاع الدين إلى نص الكتاب المقدس، ودعا إلى إصلاح الكنيسة.

---

(١) باختصار من مقدمة كتاب «ساڤونارولا – الراهب الثائر» بقلم د/ حسن عثمان. (ص:٢٣) ط. دار الكاتب المصري ١٩٤٧م.

واستمر يظهر في ايطاليا طوائف من الرهبان يعظون الناس للامتناع عن حياة الفسوق التي عاشها كثير من أهل العصر، ويهاجمون الربا الفاحش، وحياة الاستهتار والبذخ، فلقوا قبولًا من الناس حتىٰ ضاقت بهم الكنائس، فوعظوهم في الميادين العامة.

ومن هؤلاء الرهبان الذين أسهموا في الإصلاح الديني الراهب «ساڤـونـارولا» الذي يعد الممهد لـ «مارتـن لوثـر» كما يـري «ديورانت»، أي أن عصر النهضة لم يلق بالدين وراء ظهره رافضًا إياه، ولم يكن ثائرًا علىٰ نفسه، بل علىٰ بعض رجال الكنيسة بغية إنقاذ الدين، وكان تصور هذا الراهب للدين أعم وأشمل بين الاقتصار علىٰ مفهوم العبادات الفردية، ويتضح ذلك من دفاعه عن موقفه أمام أحد المجالس الدينية التي استدعىٰ إليها للنظر في أمر تدخله في شؤون الدولة، فقال لأعضاء ذلك المجلس الديني: إن غيره من رجال الدين قد اشتغلوا قبله بالسياسة، ولا جريمة في ذلك إلا إذا لم يكن هناك غرض سام أو سعي لإعلاء شأن الدين وتحدي الجميع أن يذكروا له جملة واحدة في الكتاب المقدس،

تمنع رجال الدين من معاضدة حكومة حرة، لتطبيق قواعد الأخلاق والدين»[(١)].

وكتب إلى ملوك فرنسا وأسبانيا وألمانيا وبلاد المجر، يرجوهم أن يدعوا إلى عقد مؤتمر عام لإصلاح الكنيسة، وجاء في رسالته: «لقد حان وقت الانتقام، وقد أمرني الله أن أكشف عن أسرار جديدة، وأن أظهر للعالم الأخطار التي تهدد سفينة القديس «بطرس» نتيجة لطول إهمالكم. إن الكنيسة غاصة بكل ما هو ممقوت ومرذول من قمة رأسها إلى أخمص قدمها، ومع ذلك فإنكم لا تكتفون بالسكوت عن علاج مساوئها بل إنكم تقدمون الولاء والخشوع للمتسببين في هذه الرذائل التي تدنسها»[(٢)].

وقد أودت خصومته الشديدة للبابا «اسكندر السادس» بحياته، وكانت جرأته في الحق لا تجاري بمثل قوله: «لا يستطيع

---

(١) نفسه (ص:١٥٢)، وقال مرة أمام الجموع المحتشدة في مدينة «فلورنسا»: «رئيسنا الجديد هو يسوع المسيح ذاته هو ملكنا، وليس لنا حاكم غيره». (ص:١٣٦).

(٢) «وول ديورانت» «قصة الحضارة... عصر الإيمان، عصر النهضة»، الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط. مكتبة الأسرة ٢٠٠١م.

البابا أن يصدر أمرًا ما يتعارض مع مقتضيات البر أو أوامر الإنجيل...» وإذا تبين بوضوح أن أوامر الرؤساء تتعارض مع أوامر الله، وبخاصةٍ إذا تعارضت مع قواعد البر والخير، فما من أحد الناس في هذه الحال مُلزم بإطاعتها[١].

وبمثل هذا السجل الحافل بالمواقف والأقوال التي لا تُمحي من ذاكرة التاريخ الديني بالغرب، جاء بعد «ساڤونارولا» «لوثر» وبالموازنة بينهما وصفه «ديورانت» بقوله: «لقد كان بروتستنتيا قبل أن يجئ «لوثر»، ولكن بروتستنتيته لم يكن لها معنىً إلا الدعوة لإصلاح الكنيسة، ولم يكن يشارك «لوثر» في شيء من آرائه الدينية المخالفة لآراء الكنيسة القائمة، ولكن ذكراه أصبحت قوة تملأ عقول البروتستنت، ولذلك لقبه لوثر بالقديس»[٢].

وبعد هذه العُجاله، لا ندري سبب الوهم القائل بعداء أوروبا للدين أو نبذه، فقد تبين للدارس أن الغيرة على الدين هي التي

(١) نفسه (ص:٢٧٩).
(٢) نفسه (ص:٢٩٠).

دفعت بالمصلحين إلى اتخاذ المواقف المطالبة بإصلاح الكنائس، وتطبيق الدين في الحياة السياسية كما ورد في دفاع الراهب «سافونارولا» آنفًا لا استبعاده وإهماله والتخلي عنه برمته[1].

(١) ينظر كتاب «سافونارولا» للدكتور حسن عثمان (ص: ٢٣٠).

ثانيًا: الكنيسة الكاثوليكية ونشاطها الدولي:

يقول «ميران مشيدلوف» مؤلف كتاب «الدين في عالم اليوم»: «يحدث في كثير من الأحيان أن يخلط الناس بين المقر البابوي المقدس، الذي كانت له شخصيته المعنوية في القانون الدولي، وما كان له من سلطات انتهت ١٨٧٠م، وبين مدينة الفاتيكان التي تعتبر من عام ١٩٢٩م أشبه بحكومة إقطاعية في المقر البابوي المقدسي، ثم يبين أن العرف الدولي منح الدولة البابوية الحق في تعيين ممثلين لها في الدول المختلفة، وإبرام المعاهدات وعقد الاتفاقات، وكذلك فإن الكنيسة الكاثوليكية لها هيئة إدارية قوية، تضم مجموعات الكرادلة والمحاكم وغير ذلك مما يشكل الأداة الحاكمة للبابا»[1].

ويمكن رسم إطار الكنيسة الكاثوليكية ببيان عنصرين هامين، هما:

---

(١) نفسه (ص:١١٥)، «الدين في العالم اليوم» ترجمة/ جمال السيد - دار العالم الجديد ١٩٩٠م بالقاهرة.

١- البعثات أو الإرساليات الدينية.

٢- المنظمات الدينية.

١- البعثات أو الإرساليات الدينية:

ويتم تكوينها وتباشر أعمالها بواسطة توجيه الهيئة الخاصة بالدعاية في الفاتيكان، وكانت تبعث القساوسة ورجال الدين الذين يستمدون قوتهم من الكنيسة، ثم بدأ يختفي رويدًا رويدًا تعبير كنيسة الجنس الأبيض، فاعترف الفاتيكان ١٩٢٦م بأحد عشر أسقفًا في آسيا يحملون كلهم جنسيات أسيوية، ثم عين ١٩٣٥م أول أسقف في أرتيريا بأفريقيا، وفي ١٩٤٦م عين كاردينال صيني وآخر هندي ١٩٥٢م، وذهبت الكنيسة الكاثوليكية إلى أبعد من هذا حينما تبنت وشجعت إنشاء نقابات تقف في وجه النظم الإشتراكية والشيوعية، وهي أعمال ذات صبغة سياسية[١].

(١) باختصار (ص:١١٥-١١٦).

٢- المنظمات الدينية:

وفقًا لإحصاء عام ١٩٥٧م بلغ مجموع الأعضاء في المحافل أو الجمعيات الكاثوليكية في العالم مليونًا وثلاثمائة ألف من بينهم ثلاثمائة ألف رجل، وهو في الحقيقة جيش بالغ القوة، يضع نفسه بين يدي المقر البابوي، وينفذ التعاليم الصادرة إليه بدقة بالغة، وللكنيسة الكاثولكية نشاط آخر بواسطة المعاهد الدراسية العلمانية التي ليس لها نظم الأديرة، ولكنها تتخذ شكل أُسر من الأتقياء أو القساوسة العلمانيين يعيشون في معزل عن الناس ويحترمون قانونًا خاصًا بهم ويدينون بالطاعة لرؤسائهم ومن أهمها معهد «أوبيس دي» اعترف به رسميًا بروما سنة ١٩٥٠م ويعيّن رئيسه البابا ويظل مدى الحياة، وأهدافه دينية بحته، ويحرص أعضاؤه على نشر مبادئ المسيحية لدى أصحاب المراكز الرئيسية في المجتمع أولًا، ثم الرغبة في الضغط والتأثير على الهيئة الحاكمة.

ويتصف هذا المعهد بالغموض، ولاجتماعاته صفة سرية مطلقة، وتقتصر على أعضائه.

وكان لهذا المعهد تأثيره البالغ على أسبانيا بموارده المالية الضخمة، وامتلاكه لعدد من الصحف ودور النشر ومجموعة من الفنيين لعمل أفلام سينمائية تدعو لأهدافه، مما جعله يسيطر على قطاعات عديدة كالجامعات الأسبانية ووزارة الاقتصاد الوطني وغيرهما.

ولم يظل نشاط هذا المعهد مقصورًا على أسبانيا بل امتد حتى شمل حوالي ثلاثين دولة[(١)].

وتتخذ العلاقات بين المركز البابوي في الفاتيكان وسائر الدول الأخرى شكل اتفاقات «وهذا النوع من الأدوات الدبلوماسية يتصل بمحاولة البحث عن التوازن بين المصالح الروحية والمصالح الدنيوية»[(٢)].

ومضت الكنيسة الكاثوليكية قدمًا في تنفيذ رسالتها بالرغم من العوائق والصعوبات، كحرمانها في الحرب العالمية الأولى من

---

(١) نفسه (ص:١١٧).

(٢) نفسه (ص:١١٧).

أقوي حماتها -وهي النمسا والمجر- والمواقف الصعبة لدول وسط أوروبا بين ألمانيا الهتلرية وروسيا في الحرب العالمية الثانية، مما دفع الفاتيكان بعدها لتقوية علاقاته مع ألمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

وبالرغم من كل ذلك، فإن روما -أو الفاتيكان- بما لها من مبادئ لا تحيد عنها، أخذت تقاتل من أجل أن تبقى شعلة الديانة الكاثوليكية مضيئة حتى آخر لحظة ممكنة[١].

يقول جان مينو: «ويمكننا القول أن ادعاء الكنيسة بأنها بعيدة كل البعد عن السياسة ما هو إلا مجرد وهم أو خيال، ذلك إذا لم يكن هذا الادعاء مجرد ذرًا للرماد في العيون، وما دامت الكنيسة تعيش في هذا العالم الذاخر بمختلف متطلبات الحياة فمن العبث الادعاء بأنها تفلت من التأثر بالسياسة أو من التأثير عليها»[٢].

---

(١) نفسه (ص:١١٩).

(٢) جان مينو: أستاذ العلوم السياسية بجامعة مونتريال «القوى الخفية التي تحكم العالم» (ص:١١٠) ط. دار البحوث العلمية- بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في ميدان السياسة الدولية:

يرىٰ مؤلف كتاب «القوىٰ الخفية» أن تدخل البابا في السياسة الدولية ليس موضوعًا محدد المعالم حتىٰ يتأتىٰ له تحليل معناه وتحديده مداه -أي: أنه يتسم بالاتساع والكثافة إلىٰ أبعد مدىٰ- ولكنه يلتمس طريقه في الدراسة بالتقاط بعض الأمثلة، فمنها القانون الذي صدر في روما في ١٩٦٠/٥/١٧م، الذي يحدد حقوق والتزامات الكنيسة الكاثوليكية عند تدخلها لإختيار السياسيين من الكاثوليكيين وفقًا لمبادئ وروح الدين المسيحي، ومن ثم لا يُصرح للمؤمنين بالمذهب الكاثوليكي الانضمام إلىٰ الحركات التي تتبع المبادئ الماركسية أو يتعاونوا معها، ويتأكد نفوذ المقر البابوي في ايطاليا بالذات حيث يوجد هناك ما نسميه «بنتاجون سياسي» -أي: وزارة عامة للحرب السياسية-[(١)]، وقد أدان البابا الشيوعية إدانة حازمة.

(١) نفسه (ص: ١٢٠).

وبسبب تعدد الخلافات في فرنسا فإن تصرفات الكاثوليكيين هنـاك تتسم بالقسوة والوحشيـة أحيانًـا ولاسيمـا فيمـا يتعلق بالاتجاهات الاجتماعية والسياسية التقدمية.

وهناك مثال لتدخل البابا في أمور اجتماعية بحته، يتمثل في البيان الذي أصدره ليحرم فيه وسائل تحديد النسل، ومثال آخر لتدخله في الأمور السياسية، فقد شجع البابـا فكرة اتحاد أوربا ويتضح من كل ما تقدم أنه توجد حركة كاثوليكية قوية ومتحدة لها أهداف محددة للجهاد في هذا السبيل، وأن التنظيمات التي تتكون منها الحركة تتميز بالكثافة والدقة، ويتم التعاون المتبادل بينها بواسطة مؤتمر المنظمات الكاثوليكية الدولية ومقره الرسمي في مدينة "فريبورج" بسويسرا وينعقد منذ ١٩٢٧م بإنتظام كل عام لدراسة المسائل المتعلقة بالحياة الكاثوليكية الدولية، كما أسس عدة مراكز للتنسيق وللإتصال، مهمتها تمثيل الكاثوليكيين لدى التنظيمات الدولية والحكوميـة، وكلها تخضع للرقابة العليـا من

الفاتيكان بواسطة السفارات البابوية أو المبعوثين المفوضين من الفاتيكان[(١)].

ويستثني من هذه الرقابة التنظيمات التي ترفض الإنصياع للقوانين التي وضعتها روما، وإن كانت تستوحي العقيدة والأخلاق المسيحية مثل الإتحاد الدولي للنقابات المسيحية.

وفي المجال الثقافي حددت الكنيسة الكاثوليكية هدفها الرئيسي «بنشر الحقيقة الإلهية على مستوى الفكر، وتعمل على تعاون الجامعيين غير الدينيين على تكوين الفكرة المسيحية، كما تعمل على إدخال الكنيسة الكاثوليكية في كافة البلدان وفي كافة المجالات الثقافية المختلفة»[(٢)].

---

(١) نفسه (ص:١٢٣).

(٢) نفسه (ص:١٢٣-١٢٤)، ومما يُذكر في هذا الصدد، النشاط الموسع للفاتيكان في مجال التعليم فعلى سبيل المثال يوجد في مصر ١٦٨ مدرسة خاصة تتبع الكاثوليكية بلا شروط أمنية لإقامتها. مقال بعنوان «خصوصية التعليم الأزهري» بقلم عبد الفتاح مغاوري - آفاق عربية ١٢ شوال ١٤٢٢ هـ - ٢٧ ديسمبر ٢٠٠١م.

ويقول «جان مينو» في نهاية عرضه: «ولا شك في أن نفوذ الكنيسة الكاثوليكية بالشكل الذي استعرضناه، **يعطي فكرة عن مدى نفوذها وقدرتها على التأثير والضغط في المجال الدولي وبطريقة تجعل من العسير مقارنتها بقوة دينية أخرى»**[(١)].

ولا نستطيع أن نغض الطرف ونحن نعرض لقيام الكنيسة بأداء دورها في جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية داخل القارة الأوروبية وخارجها، لا نستطيع أن نغض الطرف عن اتساع نشاطها في مجال التبشير ومحاولة تقليص المد الإسلامي الآخذ في الاتساع بالرغم من الخطط الاستعمارية الطويلة المدى التي لم تفلح في القضاء عليه كما كان مرسومًا ومستهدفًا.

وترى الدكتورة «زينب عبد العزيز» أن من أغراض فكرة

---

(١) نفسه (ص:١٢٤) ويذكر الدكتور «عبد الودود شلبي» أن من أهداف مجلس الكنائس العالمي تنصير المسلمين، وأن هذا المجلس أنشأته أجهزة المخابرات الغربية لاستعماله كرأس حربة لإثارة القلاقل والفتن في العالم الإسلامي. (ص:١٠٤) بكتابه «الإسلام والغرب» - مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م.

توحيد الكنائس التي تجددت في المجمع الفاتيكاني الثاني -كما أعلن البابا- توحيد الصفوف للتصدي للمّد الإسلامي[١].

كذلك استعرضت ما كتبته «كونستانس تشيزاري» بكتابها المعنون «البابا وكم من فريق ؟» عن عناية البابا الذي يهدف من ضم الجماعات المسيحية إلى خدمة الهدف المعلن «**بكل وضوح وهو إقتلاع الإسلام وتنصير العالم**»[٢].

واستخلص الفريق «سعد الدين الشاذلي» من دراسته لحرب الخليج الأولى بأنها الحرب الصليبية الثامنة، فهناك إجماع بين الدول المسيحية،

---

(١) د.زينب عبد العزيز «حرب صليبية بكل المقاييس» (ص:٤٦) دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة.

(٢) نفسه (ص:٧١)، وكانت الدكتورة «زينب» قد عرضت بكتابها هذا بعض النماذج العشوائية إختارتها من بين ٣٣٥ عنوانًا لمقالات تتناول فكرة الحرب الصليبية، ثم اختتمتها بقولها: «وقبل أن ننهي هذه المقدمة من المقتطفات والتي لا تسمح لأي إنسان أمين أو محايد أو حتى له بقية من الضمير الحي أن ينكر حقيقة هذه الصفة الداكنة لحرب بوش، وأنها بالفعل حرب صليبية تنصيرية بشعة الأبعاد والمرمى» (ص:٢٤-٢٥) مع العلم بأن للدكتورة «زينب» أيضًا كتابًا بعنوان «تنصير العالم.. مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني». ط. دار الوفاء ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

لا تقابله للأسف الشديد إجماع إسلامي، فإن أمريكا وبريطانيا وفرنسا التي تعتبر أقوىٰ الدول المسيحية هي التي تقود الحملة الصليبية ضد أقوىٰ دولة مسلمة في عصرنا الحاضر، وهي العراق.

ويذكر أيضًا أن الهدف المعلن هو سلامة وأمن إسرائيل، ولكن هناك هدفان غير معلنيين:

الأول: تجزئة العالم العربي والعمل علىٰ استمرار هذه التجزئة[(١)].

الثاني: هو ضرب الصحوة الإسلامية.

---

(١) الفريق سعد الدين الشاذلي: «الحرب الصليبية الثامنة... العدوان علىٰ العراق» (ج١/ الصفحات: ٤٧، ٥٦، ٥٧، ٣٠٢) ط. عيون المقالات الدار البيضاء ١٩٩١م.
ويقول الأستاذ صلاح الدين حافظ: «مع بوش كتيبة مقاتله من أشد صقور اليمين الديني المحافظ المتلهف علىٰ القتل والعدوان باسم الله وإطلاق دعوات التبشير الديني في العالم «علىٰ نقيض القيم العلمانية الأمريكية القديمة» بعد أن غلبت المسيحية الدينية علىٰ السياسة الأمريكية الحالية تحت دعاوي هداية البشر بأمر إلهي. (جريدة الأهرام بتاريخ ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٤م). ويرىٰ الدكتور مراد هوفمان: أن حرب البوسنة ومعارك إبادة المسلمين في كوسوفا كانت حروبًا دينية من وجهة نظر الغرب واليونان، فكانت حروبًا صليبية للقضاء علىٰ آخر الآثار الإسلامية في البلقان (وبالمناسبة يحظر في البلدين بناء مساجد) (ص:٧٣) من كتابه «الإسلام في الألفية الثالثة... الدين الصاعد» مصدر سابق.

ويصف هذه الهجمة بأنها صليبية لم نرَ لها مثيلًا إطلاقًا منذ الحروب الصليبية

ثالثًا: توكيد الهوية الدينية في أمريكا[(١)]:

* الأصولية المسيحية:

وفي عملية «إعادة توكيد الهوية الدينية على المسرح السياسي»[(٢)] يقرر الباحث الفرنسي «جيل كيبل» أن الإنجيليين والأصوليين الأمريكيين بين مجمل حركات إعادة التأكيد على الدين يحتلون موقعًا فريدًا ومركزيًا في آن واحد معًا على المسرح السياسي[(٣)].

---

(١) يقول جيمس فن: «لا أحد يستطيع أن يفهم أمريكا وحرياتها، إلا إذا وعى وتفهم التأثير الذي باشره، وما زال يباشره الدين في صنع هذا البلد». (ص:٩) من كتاب «المسيح اليهودي ونهاية العالم» لمؤلفه رضا هلال مكتبة الشروق ٢٠٠٠ م.

(٢) (ص:١٥٢) من كتاب «ثأر الله - الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاثة» تأليف جيل كيبل - ترجمة نصير مرو - دار قرطبة ليماسول ١٩٩٨ م.

(٣) نفسه (ص:١٤٩)، ويقول «شتراوس» وهو من المحافظين الجدد في أمريكا: «المجتمع العلماني هو أسوأ الأشياء الممكنة؛ لأنه يقود إلى الفردية، كما أن الليبرالية تقود إلى المعارضة، وكلا الأمرين يضعفان قدرة الدولة على التعامل مع التهديدات الخارجية»؛ لذلك فإنه يرى ضرورة الإبقاء على القيم الدينية للمجتمع الأمريكي.=

ويؤرخ للطرق الثقافية المتمثلة بالتوظيف الكثيف للشاشة الصغيرة في الوعظ الإنجيلي «الكنائس المرئية» من أواسط السبعينيات إذ شعر ملايين الأمريكيين بالحاجة إلى إعتناق أشكال التدين التي كان يقدمها لهم «جيم» و«تامر باكر» وأضرابهما من رجال الدين المشهورين في أمريكا -أمثال «جيري فولويل» و«جيمس سواغارت» و«بات روبرتسون»- وقد نجحوا في صياغة التحول العميق في الأخلاق الاجتماعية بمقولات الخطاب الإنجيلي أو السلفي الأصولي[١].

وهناك اليوم أكثر من ٦٠ مليون شخص يعلنون أنهم مسيحيون معمدون «ولدوا ثانية» وهناك ٦٠ مليون آخرين يعتبرون أنفسهم مؤيدين للأخلاق الدينية، وهناك ٥٠ مليونًا يمتلكون مثلًا أعلى خلقيًا ويريدون أن يُربى أولادهم في مجتمع

=دراسة بعناوان «المحافظون الجدد والمستقبل الأمريكي» بقلم د/ عبد العزيز كامل (ص:٣٣٤، ٣٣٥)، كتاب «مستقبل العالم الإسلامي»، مجلة «البيان» ١٤٢٥هـ.

(١) نفسه (ص:١١٧).

خلقي «٨٤٪ من الشعب الأمريكي يعتقدون أن الوصايا العشر لا تزال صالحة اليوم»[١].

وأبرز الحركات الدينية السياسية هي التي قام بها «جيري فالويل» عام ١٩٧٩م، وكان يعلن أنه حان الأوان لكي يجمع الأمريكيون الأخلاقيون قواهم لإنقاذ «أمتنا الحبيبة».

وقد شهدت هذه الحركة وسواها من الحركات التي تقاسمها أهدافها تناميًا مرموقًا بين أواسط السبعينات ونهاية الثمانيات ضمن الإطار الأوسع الذي يطلق عليه في الولايات المتحدة «السلفية الأصولية الإنجيليانية أو اليمين المسيحي الجديد»[٢].

---

(١) نفسه (ص: ١١٨).

(٢) نفسه (ص:١١٨)، وكشفت استطلاعات «جالوب» أن حوالي ٧٠ مليونًا من الأمريكيين يشاهدون الشبكات التليفزيونية الإيفانجيلية «الكنائس المرئية» التي بلغ عددها ١٠٤ محطة تليفزيونية، إضافة إلى ١٠٠٦ قناة تليفزيونية بنظام الشفرة «الكابل» وتزايد عدد دور النشر المسيحية إلى ١٣٠٠ دار نشر متخصصة في العناوين المسيحية، إضافة إلى ٧ آلاف مكتبة لتوزيع الكتب المسيحية وتقدر مبيعاتها بحوالي ٣ مليارات دولار سنويًا.

أما الائتلاف المسيحي، فقد أسس شبكة اذاعات تضم ١٣٠٠ محطة إذاعة عام ١٩٨٩م (ص: ١٢٠، ١٣٢) من كتاب «المسيح اليهودي ونهاية العالم» تأليف رضا هلال.

ولكن «سمير مرقص» يؤرخ للأصولية المسيحية مع بدايات القرن العشرين، إذ تبلورت فكريًا في أعقاب نشر سلسلة من (١٢ مجلدًا) تحت عنوان «الأصول» تضم تسعين مقالة حررها مختلف اللاهوتيين البروتستانت المعارضين لكل تسوية أو حل وسط مع الحداثة، والأصولية المسيحية هي التي وضعت التأسيس النظري لدور «الله» في تطهير الثقافة السائدة وشن الحرب المقدسة ضد الشيطان القابع في قلب الوطن، ولهم وحدهم التعبير عن الإرادة الالهية، وقد أخذ هذا التصور ليشمل السياسة الخارجية الأمريكية في أول الحرب العالمية الأولى -على سبيل المثال- حربًا بين العقلانية الألمانية والمسيحية الأمريكية[١].

ويتضح أيضًا أن لهذه الحركات صلات قوية بتوجيه سياسة أمريكا نحو إسرائيل، اتضحت في أقوال بعض رؤسائها -مثل «كارتر» في قوله أمام الكنيست الإسرائيلي: «لقد أقام كلًا من

---

(١) سمير مرقص: «رسالة في الأصولية البروتستانتية والسياسة الخارجية الأمريكية»، (ص:١٢) مكتبة الشروق ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

إسرائيل وأمريكا مهاجرون رواد... ثم أننا نتقاسم معكم تراث التوراة»(١)، وكلمة «كلينتون» في خطاب الاتحاد ١٩٩٧م: «استرشادًا بالرؤية القديمة لأرض الميعاد، **فلنوجه أبصارنا اليوم إلى أرض الميعاد الجديدة**»(٢).

هذا بينما تعلن منظمة «شالسيدون» بصراحة وقوة «أن العهد القديم يتضمن الخطة الصالحة لإقامة مجتمع مثالي، ولا بد من إقامة حكم يتبنى تنفيذ تعاليم العهد القديم. **حتى لو تطلب الأمر إحراق مجتمع المفسدين والكفار والعلمانيين لإقرار حاكمية الرب**»(٣).

وفي النهاية، تبين لنا أن هذه الأنشطة استطاعت أيضًا توجيه سياسة أمريكا الخارجية، فقد استطاعت الحركة الأصولية البروتستانتينية أن تلعب دورًا مؤثرًا في الحياة السياسية الأمريكية،

---

(١) رضا هلال: «المسيح اليهودي ونهاية العالم» - «المسيحية السياسية، والأصولية في أمريكا»، (ص:٧٥) مكتبة الشروق ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٢) نفسه (ص:١١٧).

(٣) نفسه (ص:١٥٣).

واستعادة المفاهيم والتصورات النقية التي طرحتها الأصولية في بدايات القرن، وصبغها بأبعاد سياسية، واستخدامها في الواقع السياسي الأمريكي، بل وامتدادها لتشمل السياسة الخارجية الأمريكية[١] وكان المرشحون الثلاثة إبان إنتخابات الرئاسة عام ١٩٨٠م «اندرسون وكارتر وريغان» كانوا يعلنون جميعًا إنتماءهم إلى الإنجيلية[٢].

وللقـارئ العزيز أسوق نصًا هامًا يتصل بموضوعنـا، قرأته بكتـاب «أوباما ونهاية أمريكا»[٣]، حيث قال مؤلفه: «وحتى يعلم أصحاب الأقلام التي تروج السياسة على أنها منفصلة عن

(١) سمير مرقص: رسالة في الأصولية البروتستنتينية والسياسة الخارجية الأمريكية، (ص:١٣) مكتبة الشروق ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

(٢) جيل كيبل - ثأر الله «الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاثة» (ص:١٣٢) مصدر سابق ويقول المهتدي إلى الإسلام أحمد عبد الله (سابقًا رالف دينيس) [أسلمتُ حيث كان يجب أن أكون من ألدّ أعداء الإسلام، فقد تعرفت على الإسلام في جامعة من أخطر الجامعات التي تخصصت في محاربته .. إنها جامعة برنستون المعروفة في الولايات المتحدة] د/ عبد الودود شلبي (الإسلام والغرب) (ص:١٠٧) مصدر سابق.

(٣) محمد أبو الوفى (أوباما ونهاية أمريكا) هل يكون الرئيس الأخير لأمريكا؟ مدبولي الصغير بالمهندسين - القاهرة سنة ٢٠٠٩ م

الدين، فإننا نقول إن هذا الأمر ينطبق على أهل الإسلام وقد يشاركنا في ذلك أصحاب الملل والنحل من المذاهب والديانات الأخرى والتي يرى البعض أنها غير سماوية».

أما أهل الكتاب وخاصة اليهود الصهاينة في الألفيتين السابقتين والألفية الثالثة الحالية **لا يتعاملون مع السياسة في مثقال ذرة إلا من منطلق النصوص المتوفرة لديهم**، فإيمانهم بكتبهم عقيدة راسخة لا تزول بمضي الأيام والسنين، وهم يعدون لها قبلًا بتجهيز الزمان والمكان -إن أمكن- والرجال لقيادة الدفة لسفينتهم لتحقيق آمالهم وأحلامهم وطموحاتهم وأحيانًا للالتفاف حول النبوءات لغرض الهروب مما لا يكون في صالحهم، ونرى من النصوص المؤيدة لرجوع النعمة لهم ما يلي: **ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه، التي بقيت، من أشور، ومن مصر، ومن فتروس، ومن كوش، ومن عيلام، ومن شنعار، ومن حماة، ومن جزائر البحر. ١٢ ويرفع راية للأمم، ويجمع منفيي إسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة الراف الأرض. ١٣ فيزول**

حسد أفرايم، وينقرض المضايقون من يهوذا. أفرايم لا يحسد يهوذا، ويهوذا لا يضايق أفرايم. ١٤ وينقضان على أكتاف الفلسطينيين غربًا، وينهبون في المشرق معًا. يكون على أدوم وموآب امتداد يدهما، وبنوعمّون في طاعتهما[١].

ومن خـلال ما ورد في النص نجد أن النعمـة لبني إسرائيـل تكون في هذا الزمن وهو زمن (دولة صهيون)، والتي جاءت النبوءة إليهم بانقضاضهم على أكتاف الفلسطينيين غربًا، وكلمة غربًا هنا تعني التمركز في ساحة الخريطة من النهر شرقًا إلى البحر الكبير (المتوسط) غربًا. وينهبون بنى المشرق معًا وهذا يدل على تسلطهم على دول الخريطة الجغرافية في أفغانستان والعراق (ومؤاب وأدوم وبنوعمون) كلها تعني الدول العربية المجاورة لإسرائيل، فأدوم تعني الأردن ومؤاب وبنوعمون هما جزآن في الشمال والجنوب لبلاد الشام... أي أن الموضوع في التوسع لن

(١) سفر إشيعا الإصحاح الحادي عشر ١١ – ١٤.

يكون فقط على حساب فلسطين والعراق وأفغانستان فحسب بل سيطال الدول العربية مثل سورية والأردن ولبنان وجزءًا من شمال الجزيرة حتى مقر خيبر على حدود المدينة المنورة. وإذا ظن البعض أن السياسات مع بعض الدول من هذه المناطق جيدة مع الغرب أو إسرائيل فإنه واهم...

فلن تنتصر السياسة مع الصهاينة على النص أو النبوءة، وإنما هي مراحل زمنية في معاهدات سلمية أو تعاملات حسنة بصفة مؤقتة إلى حين التنفيذ فجأة (بالتغيير) كما هو معلوم لديهم في الشعارات الخفية (نعمة التغيير) ولكننا نفهم التغيير على حد علمنا الظاهري دون معرفة القصد من التغيير، ولسوف تكشف الأعوام القليلة المقبلة طفرة من السلام الشكلي لحين ترتيب الأوراق... ثم يكون (التغيير).



٢- كان هناك إخفاء متّعمد للمكوّن الديني النصراني في الثقافة الغربية حتى ننساق وراءهم ونفرّغ ثقافتنا من العقيدة الدينية:

يقول أستاذنا الدكتور/ محمد علي أبو ريان -رحمه الله تعالىٰ-:

«ينبغي أن نواجه بصورة حاسمة أصحاب نزعة التغريب من المسلمين المعاصرين الذين ينقلون كل شيء عن حضارة الغرب وهم غافلين عن أنه لما كان العامل الأساسي للعلوم الإنسانية في الغرب -ألا وهو الفلسفة- مرتبطا في بنيته الأساسية باللاهوت المسيحي، وبكل ما عَلُق بالعقلية الأوروبية من مناقشات حول القضية المسيحية- فإنه ينبغي علىٰ هؤلاء الذين يدّعون أنهم ذو نزعة علمانية، ينبغي عليهم أن ينتبهوا إلىٰ هذه النقطة الخطيرة، وهي أنهم في الوقت الذي يقفون فيه في تحدٍ ظاهر ضد تراث الإسلام والعرب، الذي يؤمن أصحابه بالإسلام عقيدة وسلوكًا، نراهم يقعون في شباك التيار المسيحي، الذي يلتحم تمامًا بالفكر الغربي منذ مطلعه، ويتعصبون له كتراث أساسي للحضارة

الغربية، بدلًا من أن يكشفوا الزيف عنه ويجردوه من العناصر الدينية، مستفيدين فقط من النواحي العلمية الموجودة فيه، والتي تفيدنا في قيام الحضارة لدينا، دون أن تنقص من تراثنا القومي أو تقضي عليه فتكوّن صورًا مكررة وناقصة مستعدين لثقافة الغرب المسيحية وحضارته وعنفوان غزوه الفكري وحينما حاولت العلوم الإنسانية في الغرب بعد الثورة الفرنسية أن تتنكر للدين صراحة، وأن تدير ظهرها لكل ما هو روحي بتأثير اشتداد المد الفلسفي المادي الذي تمثَّل في القرن التاسع عشر في اشتداد حركة المنهج التجريبي المتزمت، أخذت العلوم الإنسانية منذ هذه الفترة تخضع للقياس الكمي، وهنا بدأت تظهر بالتدريج بوادر أزمة منهج العلوم الإنسانية، تلك التي كان يمكن تلافيها لو ارتبطت هذه العلوم بفكر يقوم على أساس روحي][1] وقد تعقب أستاذنا/ محمد علي أبوريان رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أشهر الفلاسفة من الغربيين

(١) د/ محمد علي أبو ريان «أسلمة المعرفة – العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية» دار المعرفة الجامعية – اسكندرية سنة ١٩٩٧م

بدراسة تحليلية نقدية لإظهار أثر الدين في فلسفاتهم وتأتي شهادته في نهاية حياته ذات قيمة عظمى- فهذا أستاذ الفلسفة المخضرم خريج جامعة السربون -وأخذ يحذرنا بشدة من التقليد الأعمى لحضارة الغرب التي تهدف إلى إخضاع العـرب والمسلمين لقيادة وإرشاد الغرب المختلط بالتبشير بالمسيحية، واستعبادهم للغرب فكريًا وماديًا دون أي أمل في صحوة مقبلة[1].

ومن فرط حرصه على ضرورة المحافظة على معالم أمتنا، تساءل في نهاية دراسته «هل استطاعت قوى الغرب المسيحية أن تضيع معالم الشخصية الصينيـة أو اليابانيـة، سواء من حيث العادات والتقاليد أو من حيث الاتجاهات الروحية والدينية، والقياس مع الفارق طبعًا بين أديان الشرق الوثنية ودين الإسلام الذي أُرسل للناس كافة كدين سماوي تمثل في كتاب هو القرآن وسنة مطهرة هي سنة النبي الكريم ﷺ؟

(١) نفسه (ص:٢٢٢).

إن الجواب على هذا التساؤل إنما يتحقق بمدى عزمنا على الوقوف في جدية وحزم أمام بعض تيارات الثقافة الغربية المضللة المعادية للإسلام على أن يكون صمودنا في هذا المجال موازيًا تمامًا لتمسكنا بحركة التقدم الحضاري التي لن تتم في شقها المادي إلا بالأخذ من الغرب في تخير وحذر وذكاء كما فعل اليابانيون أو الصينيون»[1].

وسنكتفي بعرض بعض النتائج التي استخلصها الدكتور «محمد علي أبوريان» لإقناع الذين خدُعوا بتلقي الفلسفة الغربية في ظاهرها المضلل الذي يظهر بالمظهر العقلاني بينما تحتوي في أحشائها على اللاهوت المسيحي.

١- ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٦٥م):

سيتضح من تحليل المنهج الديكارتي أن اليقين بالنسبة للأفكار أنما تُمنح صفة اليقين بتأثير من السَنَن الإلهي وتدَّخُلِ

(١) نفسه (ص:٢٢٣).

اللهُ في عملية المعرفة، ومهما حاول الزعم باعتماده على العقل المحض، إلا أن عقيدته تظهر كموجه لا شفوي في كتاباته.

٢- مالبرانش (١٦٣٨ - ١٧٥١م):

ويتضح أبعاد التأثير الديني المسيحي عند مالبرانش أحد صغار الديكارتيين بطريقة أكثر رسوخًا حيث أنه من المعروف دائمًا أن الكثير من الآراء التي يتعمّد الفيلسوف تحويرها أو إخفاءها إنما تظهر بوضوح عند تلامذته، وهذا ما حدث بالنسبة لمالبرانش، إذ انصبّت فيه كل الآراء اللاهوتية الكامنة في المذهب الديكارتي[١].

٣- بليز بسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢م):

(إذا كان بسكال يختلف عن ديكارت في أنه كان أكثر ميلًا إلى العلم وإلى التجربة منه إلى الاستدلال والاستناد إلى النظر أولًا، إلا أننا نجد أنه بعد اتصاله برجال الدين أخذ يقرأ في الكتب الدينية

---

(١) نفس (ص:٢٠٨).

وانتهىٰ إلىٰ الإيمان بأن المسيحية تقتضينا أن نحيا لله وحده، اعتبر كوالده أن العقيدة موضوع إيمان وغير قابلة للبحث بالعقل[(١)].

وكان يرىٰ أن هناك ثلاث مراتب للوجود وهي الجسم والروح ومحبة الله، وتعتبر محبة الله هي أسمىٰ هدف في الوجود، وهذا هو لبّ المسيحية وقوامها[(٢)].

٤- ليْبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦م):

يري ليْبنتز أن الله هو خالق «المونادات» التي هي وحدات وجودية لا متمايزة، وكل منها يُمثِل الوجود ككل، والله هو العلة الوحيـدة لوجودها، وهي تصدر عنه بفعـل خلق مستمر، وهو الحافظ لها باستمرار الخلق[(٣)].

ويمضي هذا الفيلسوف موغلًا في طريق المسيحية البحتة،

---

(١) نفسه (ص: ٢١٠).
(٢) نفسه (ص: ٢١٣).
(٣) نفس (ص: ٢١٤).

فيري أن هذا العالم هو أحسن العوالم الممكنة، وأن الله ليس علة للشر، كما أن الخطيئة تستحق العقاب. وبعد عرض فلسفته، يقرر الدكتور «أبوريان» رَحِمَهُ اللَّهُ أن ليبنتز على الرغم من محاولته استخدام العقل في الاستدلال على حقيقة مذهبه، إلا أنه قد أخضع مسار المذهب وبنيته تمامًا لتيار اللاهوت المسيحي[١].

٥- جورج باركلي (١٦٨٥ - ١٧٥٣م):

سار «باركلي» على نفس الدرب الذي سلكه من سبقه من الديكارتيين ولاسيما «نقولا مالبرانش» من ارتمائهم في أحضان الدين المسيحي، وقيام الفلسفة على أساس من اللاهوت المسيحي، وكان باركلي بالفعل رجل دين مثله مثل مالبرانش، وهو يجعل من الله محور مذهبه في الوجود والمعرفة و اليقين، وينكر وجود المادة، ويري أن اللامادية هي المذهب الحق،وأنه لا يوجد سوى الأرواح. فالموضوعات المباشرة للفكر -بعد إنكار المادة- هي المعاني دون

---

(١) نفسه (ص:٢١٤).

الأشياء.واللامادية عنده لا تحيل الأشياء إلى معان وإنما تحيل المعاني إلى أشياء[١]، وهكذا يذهب إلى أن الذهن لا يعرف الأشياء مباشرة بل يعرفها بواسطة ما لديه من معان. وهذا مذهب مسيحي يعتبر فرعًا من الأفلاطونية المسيحية، فالله هو الفاعل الأوحد، والعالم هو رمز ولغة وتجلٍّ لذاته، ونري «باركلي» في النهاية يؤمن بالنظرية الأفلاطونية الجديدة في الأقانيم الثلاثة باعتبارها وسيلة إلى تصور عقيدة الثالوث[٢].

٦- إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤م):

يقول الدكتور «أبوريان» رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا كنا نعتبر أن موجة اللاهوت السافر قد أخذت في الانحسار، بعد نهاية القرن السابع عشر لتصبح وراء ستار، ولا سيما وقد ظهرت موجة المفكرين الأحرار وحركات التحرر من الدين في القرن الثامن عشر، مع ذيوع الرومانسية وحركتها في الفكر والفن والأدب، إلا أننا مع

---

(١) نفسه (ص:٢١٥).

(٢) نفسه (ص:٢١٦).

هـذا نلمح استمـرار التيـار اللاهـوتي وراء مذهب الكثيرين من الفلاسفة وأهمهم «إيمانوبل كانط»[1]، وبيان ذلك انه كان في كتابه «نقد العقل النظري» مثالًا للفيلسوف الناقد الذي يحتفظ بقوة وسلاسة منطق استدلالاته بحيث تؤدىٰ عن طريق هذا النقد إلىٰ رفض الوجود الجوهري السابق للألوهيه وللنفس وللعالم، وهذه هي دعائم العقيدة والدين. ولقد انتقد «كانط» كل الأدله علىٰ وجود الله والنفس والعالم ورأي أنها كلها مشوبة بالبطلان.

ولكن مسار الفكر الكانطي تغيُّر فجأة، وصادر كل ما جاء في (نقد العقل النظري) لكيّ يفتح صفحة جديدة واتجاهًا مضادًا يحترم فيه الدين في كتابه (نقد العقل العملي)، إذ وجد أنه متناقضًا مع نفسه، بمعنىٰ أن مذهبه في نقد العقل النظري يتناقص مع ما يعتنقه من أراء حول الدين، فهو مسيحي بروتستانتي، مواظب علىٰ أداء الطقوس والمراسم الدينية، فكيف له أن يضحي بدينه من

---

(١) نفسه (ص:٢١٧).

أجل الفلسفة؟ لهذا نراه يقبل عن طريق العمل ما سبق أن رفضه عن طريق النظر، وهو يقبل الإيمان بوجود الله، وبوجود النفس، ووجود هذا العالم الأخروي.

فالعقل العملي إذن قد قبل مساندة الدين والأخلاق والمسلمات الأساسية التي سبق وأن رفضها عن طريق النظر[1].

وفي ختام عرض فلسفته، يقول الدكتور «أبـوريـان» رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهكذا نجد أن فيلسوفًا كبيرًا مثل كانط يُعَدُ من أعظم فلاسفة القرن الثامن عشر، وله تأثيره الكبير في الفكر الفلسفي، كيف انه انحاز إلى جانب التيار المسيحي الإيماني، وكأنه قذف ببناء فلسفته النقدية في الهواء في سبيل إرساء قواعد الدين، كما يُعد هذا أيضًا مثالًا صارخًا على أن الحضارة الغربية الحديثة، إنما ترجع في أصولها الفكرية الى المسيحية، ولاسيما في الفلسفة والمعارف الإنسانية»[2].

---

(١) نفسه (ص:٢١٨).

(٢) نفسه (ص:٢١٨).

٧- سورين كيركجارد (١٨١٣- ١٨٥٠م):

يقول الدكتور «محمد على أبوريان» رحمه الله: «لعلنا نقدم «كيركجارد» كصورة معاصرة للفيلسوف الثائر على بيئة لأنها تزعم أنها مسيحية، في حين أنهم لا يعملون بتعليم المسيح، ولهذا أراد أن يشق طريقًا فلسفيًا يرسي به قواعد الدين والأخلاق المسيحية كي تقبلها النفوس»[1].

وقد وجّه هذا الفيلسوف النظر إلى الإيمان وأراد إعادة الثقة في الكتاب المقدس والتسليم بالخطيئة الأولى، ولهذا فغاية الفلسفة عنده هي أن يجعل الخلاص من الخطيئة الأولى ممكنًا بعد التطهر ومن ثم فقد اتجهت أدلته على وجود الله وتنزّل المسيح إلى دفاع عن التعاليم المسيحية..... ويرى أن المسيح لا ينزل على الأرض لكي يخلص البشر من الخطيئة فحسب كما قد يُفهم من تعاليم المسيحية،بل هو المخلص من القلق الوجودي واليأس

---

(١) نفسه (ص:٢١٩).

وسائر أنواع الخوف التي تعانيها الذات في موقف الاختيار في المدرج الأخلاقي[١].

وهكذا يتبين أن فيلسوف معًاصرًا مثل «كيركجارد» يغرق إلى قمة رأسه في اللاهوت المسيحي، بل يحاول الربط بين الوجودية وعقيدة التجسد والخلاص المسيحي[٢].

وفي النهاية يقول الدكتور أبوريان: «ولا نود الاستطراد في عرض مواقف الوجودية المؤمنة كما نجدها عند جبريل مارسيل مثلًا، ويكفي أن نشير إلى أنه على الرغم من شيوع المنهج التجريبي في القرن التاسع عشر في مجال العلوم الإنسانية وذيوع الفلسفة المادية؛ إلا أننا نجد التيار الديني المسيحي يستمر في مساندة الفكر الأوربي على نمو ما نجده في الفلسفة الروحية البحتة عند إميل بوترو وبرجسون»[٣].

---

(١) نفسه (ص: ٢٢١).

(٢) نفسه (ص: ٢٢١).

(٣) نفسه (ص: ٢٢١).

٣- مازال الغرب يجتر تراثه القديم:

ربما نفاجئ بعض مثقفينا اللاهثين وراء كل جديد معاصر، واتهام من يستمسك بالتراث بأنه رجعي، ويريد إعادة ساعة الزمن إلى الوراء!

فما موقفهم إذا ما بينا أن الغرب الذي يقلدّونه لا زال يجتر تراثه اليوناني القديم -أي ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام-؟

وقد تبين من دراسة الفلسفة المعاصرة أنها تعيد وتكرّر نفس القضايا التي كانت مثارة في عصر الفيلسوف أفلاطون (٤٣٨ ق.م) وهذا ما يؤكده ويل ديورانت في كتابة «قصة الفلسفة» حيث أشار إلى كتاب «الجمهورية» لأفلاطون ثم طرح القضايا التي بحثها بمنهج مقارن، فتبين له أنها هي نفسها المطروحة بواسطة الفلاسفة المعاصرون «فهنا -في «الجمهورية»- سنجد ميتافيزيقاه، ولاهوته، وأخلاقه الوضعية، وعلم نفسه وعلم تربيته، وسياسته، ونظريته في الفن، وهنا سنجد قضايا تفوح منها رائحة العصرية، ولها مذاق معاصر: سنجد الشيوعية، والاشتراكية، الحرية النسائية، وتحديد

النسل، وتحسينه، وستطالعنا قضيتا نيتشه: الأخلاق، والأرستقراطية، وقضيتا روسو: العودة إلى الطبيعة، والتربية، وقضية بيرجسون: الابتداع الحيوي، والتحليل النفسي، كل شيء موجود هنا»[(١)].

وفي وسط هذا الركام من التزييف والتضليل، ارتفع صوت الحق مجلجلًا؛ للرد على تقليد الغرب، فقام الشيخ **أحمد شاكر** -رحمه الله تعالى- ليعلن ضرورة التمسك بالدين الإسلامي، وأخذ يدافع عن شريعته ونُظُمِهِ في مواجهة أعدائه، بل ظل يعمل أكثر من عشرين عامًا لهذا الغرض.

ونكتفي الآن -قبل عرض ترجمة حياته ونشاطه العلمي والأدبي- في موضعه من هذا الكتاب بمحاضرته التي ألقاها لشرح محتويات كتاب بعنوان «الحرب الحديثة وما تلقيه على مصر والشرق العربي من دروس»[(٢)] فوصفه بقوله: «فوجدت فيه كلمات نفيسة في الدين

---

(١) ويل ديورانت «قصة الفلسفة» (ص:٧٣) ترجمة أحمد الشيباني - منشورات المكتبة الأصلية - بيروت - سنة ١٩٦٥م.

(٢) صدر عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م لمؤلفه رياض محمود مفتاح المحامي.

والسياسة والاجتماع توافق كثيرًا مما ندعو إليه من الآراء للنهوض بالأمة العربية وسائر الشعوب الإسلامية ولنصر الإسلام وإعلاء كلمته»[١].

وكان مؤيدًا لدعوة المسلمين إلىٰ أن يتمسكوا بدينهم، وأن لا يفتتنهم عنه ما يرون من المدنيّة الأوربية الزائفة، وأن يهيمن الإيمان في القلب علىٰ كل أعمال المسلم، من عبادة ومعاملة وسياسة واجتماع، وأن يحافظ المسلم علىٰ العبادة التي أمر بها الله وحده ليكون ذلك هاديًا له في كل شأن من شؤونه في حياته، وأن يقوم المسلمون بدعوة العالم كله إلىٰ الأخذ بشريعة الإسلام، وإن ذلك هو السبيل الوحيد لحل المشكلات الدولية التي تثير الحروب الماحقة في فترات متقاربة»[٢].

---

(١) كتاب «جمهرة مقالات العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر – مع أهم تعقيبات الشيخ علىٰ دائرة المعارف الإسلامية» (٢/ ٦٨٢-٦٨٣) جمعها عبد الرحمن بن عبد العزيز ابن حماد العقل دار الرياض – أرض اللواء – مصر سنة ٢٠٠٥م.

(٢) كتاب «جمهرة مقالات العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر – مع أهم تعقيبات الشيخ على دائرة المعارف الإسلامية» (٢/ ٦٨٢، ٦٨٣) جمعها عبد الرحمن بن عبد العزيز ابن حمّاد العقل – دار الرياض – أرض اللواء بالجيزة – مصر ٢٠٠٥م.

ثم قال: وسأنقل لكم هنا بعض فقرات من هذا الكتاب النفيس المدهش: يقول في (ص:٢٢): «وهنا تكون الكلمة للشرق العربي، ليؤدي رسالته للعالم في العصر الحديث بالاستمساك بالدين الإسلامي، وتنظيم أحوال البشر على مبادئه السامية، من الإيمان والعدالة والتضامن والتسوية والأخوة الإنسانية جمعاء، فهي المبادئ التي لا صلاح للبشر إن خرجوا عليها، وهي المبادئ الخالدة يرجع إليها الناس بعد طول تقلب وتجارب فيجدون فيها الهدى، فالبشر اليوم أحوج ما يكونون إلى مبادئ جديدة، وأذهانهم على الأُهبة لفحص الجديد من المذاهب والمبادئ، بعد أن فشلت مذاهبهم، وشككتهم التطورات العالمية الأخيرة في قيمتها وصلاحيتها».

ويقول (ص:٢٦): «ولست أعني بالحضارة الإسلامية ما كان عليه أهل العواصم الكبرى من الترف والنعيم، وما ازدانت به دار السلام والقاهرة وإستانبول من جميل المناظر، فالقصور ووشيها، ومجالس الغناء والندمان، وما فيها من العزف والحبور، ليست

من الحضارة الإسلامية بل فيها مما يخالف الإسلام -دين البساطة والرجولة- أكثر مما يوافقه، وإنما خلود الحضارة الإسلامية في مبادئها الموجهة لمخاطبة البشر كافة، فالناس فيما بينهم أخوة كأعضاء الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر.

لا يُعتبر أحدهما مسلمًا إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهم سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي منهم إلا بالتقوى، يهيمن فوق هذه المبادئ مبدأ الإيمان بالله الأحد خالق الدنيا وما فيها من خير فهو الذي يُعبد، ومنه تُلتمس الهداية لسلوك طريق الخير ولتطهير النفس من أدران الأَثَرة والظلم، ولملئها بعوامل المحبة والأخوة والعطف على الفقير، والعدل والإحسان والخضوع لأوامره تعالى.

فهذا الإيمان وهذه العبادة للخالق المُسَيِر للأمور ابتغاء مرضاتـه وحسن الجـزاء منه في دار الخلود: هذه العبادة هي زاد النفس، للتغلب على عوامل الشر، والاهتداء لعوامل الخير في كل

المعاملات الإنسانية سواء منها ما كان بين الفرد وأسرته، أو ما كان بين الفرد وأخيه، أو ما كان بين الحكام والمحكومين، أو ما كان بين دولتهم بأكملها و الدولات الأجنبية.

وهذه المبادئ الخالدة أساسية لكل حضارة، وإلا كانت واهية الأساس ينهار بناؤها برمته مرة واحدة. تأمّل المدن الأوربية وكيف نُسِقَت، وناطحات السحاب وكيف تعالت، والمصانع الضخمة وكم تنتج في اليوم بل في الساعة. تأمل كل هذا، وتأمل كيف يأكل بعض هذه الحضارة بعضًا، فتدك ما شيدت، وتقتل ما ولدت، وتسبب للإنسان من المتاعب أضعاف ما جلبته له من الرفاهية، ذلك أنها فقدت عنصر الإيمان الأساسي الذي يطهر النفس، ويملؤها بحب الخير للإنسان لا لوطن ولا لجنس واحد».

إلى أن يقول في (ص:٢٩): «وكانت نظمنا -نحن المسلمين في الشرق العربي- إلى عهد قريب من ذلك النوع الذي يحوي الكثير من الشر لأنفسنا، والتي ليست مثالًا يحتذي به أو توجه الدعوى

للغير للاقتداء به، وخير لنا أن نلتمس علاج أدوائنا في مبادئ شريعتنا الغراء، لا في المذاهب الأوربية الضيقة النطاق».

ومما يقول في النظم الاقتصادية بعد أن شرح كثيرًا منها، وتكلم عن الرأسمالية والاشتراكية وغيرهما، قال (ص:١١٦): «غير أن هذا التفكير يجب أن ينأي عن التقليد والاقتباس من المذاهب الأجنبية، فمهما أدي بعضها من نفع، ومهما بدا براقًا، فلا حاجة لنا به، وإنما لدينا نظامنا الإسلامي: «الزكاة» نرجع إليه فنرىٰ فيه علاجًا لعيوبنا الاقتصادية، علاجًا لا يصلح لنا فحسب، بل للإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان».

إلىٰ آخر هذا البحث النفيس الذي قل أن تجد مثله لباحث.

وهو يقول في مزية التشريع الإسلامي (ص:١٧٠): «علىٰ أن أبرز خاصية للشريعة الإسلامية، وأميزُ ما في الثقافة الشرقية بوجه عام، هو قيامها علىٰ الإيمان الديني الذي لا يقتصر علىٰ تنظيم عبادة المخلوق للخالق، بل يسيطر علىٰ كل الأنظمة الاجتماعية

للخلق. ذلك ما يقع وجوب تأديته للعالم علىٰ مصر والشرق العربي اليوم، لعل فيه الشفاء و الإنقاذ من الخراب والفساد»، إلىٰ أن قال (ص:٢٠٦): «فالمستقبل فيما نري للشريعة الإسلامية، وسينتهي العالم إليها بعد أن كاد يضيع الإيمان من النفوس، وبعد أن أدىٰ ذلك إلىٰ قيام أنظمة تستغل الإيمان استغلالًا وحشيًا، وسينتهي العالم إلىٰ تلك المبادئ المطهرة للنفوس، النازعة منها الشرور والأنانية، والدافعة إياها للتضامن، موجهة للإنسانية بلا تفرقة بين الأجناس، سينتهي العالم إلىٰ تلك المبادئ كأساس لتشريعاتهم»، إلىٰ آخر ما قال في الكتاب من أبحاث نيرة موفقة، تسمو عن أكثر ما يكتب الباحثون في هذا العصر، فاقرأه كله واستوعبه، فليس يغني بعضه عن بعض.

وفي النهاية؛ أبدىٰ إعجابه الشديد بآراء وعلم المؤلف، وبفقهه في الإسلام وإدراكه حقائقه، أكثر مما يدركها كثير من علمائه[1].

---

(١) نفسه صفحات من: (٦٨٤ إلىٰ ٦٨٧).

رابعًا: فشل المشروع القومي البديل لـ «الجامعة الإسلامية»:

إن المشروع القومي كان أساسه تاريخيًا الانسلاخ من الخلافة العثمانية والاستقلال عنها بزعم إقامة «خلافة عربية».

وشجّعت إنجلترا على إقامتها، فقد رحب «كتشنر» بها ووعد بحمايتها من الهجوم الخارجي، ولكن الحقيقة التي أسفرت عنها النتائج بعد ذلك أن إنجلترا كانت تعد بمساندة «فكرة ميتة»؛ لأنها كانت «تعلم بلا شك أن الطامحين إليها كثيرون، بل تدفع هي نفسها بآخرين إليها، وإذا اتفق العرب على الخلافة فلن يتفقوا على الخليفة»[١].

ونحن لا نستغرب قيام الإنجليز ببذر بذور الانشقاق بين حكام العرب، فقد كان الشريف حسين يخشى العزل من الدولة العثمانية، «ويخشى العداء من خلفه من ابن السعود الذي يحرضه «مكتب الهند» البريطاني».

(١) د/ ذوقان قرقوط «المشروع القومي الذي لم يتم - بحث في نزعات التوحيد ١٩١٣ - ١٩٥٢م»، (ص:٢٣)، مكتبة مدبولي ٢٠٠٦م.

ويعلل مؤلف كتاب «المشروع القومي الذي لم يتم» الفشل بتقاعس همم العرب عند الخيار المطلوب، فكان هذا الخطأ القاتل الذي موّه المشاعر «شعوب متحفزة ثائرة وقيادات متهالكة مساومة»[١]، لأن الثورة العربية آلت إلى «إقامة عروش في الحجاز والعراق والأردن ولم يبدر من هذه العروش حركة واحدة باتجاه تحقيق الأماني العربية»[٢].

وقد أخذ مؤلف الكتاب يفنّد في الفصل السابع من الكتاب بعنوان: «بلاد مستباحة وشعوب واحدة، ذاهلة وضائعة» أسباب النشاز في صفوف العرب، فيقول: «فبدلًا من أن تواجه البلاد في الثلاثينيات الاستعمار والصهيونية، موحدة كما واجهتها مباشرة في العشرينيات قامت فيها أحزاب إقليمية وطائفية تبذر الشكوك بقومية البلاد وانتمائها العربي الإسلامي، وبوحدتها.. فالحزب السوري القومي الذي أكرهته المستجدات على تبديل اسمه مرات،

---

(١) نفسه (ص: ١٣٤).

(٢) نفسه (ص: ١٣٦).

يلي بفذلكته الاجتماعية «سايكس بيكو»، والحزب الشيوعي نشأ نشأة أجنبية مرتبطًا بنشر فكرة الشيوعية، ومعاداة الاستعمار قبل اهتمامه بمصير البلاد»[١].

وعندما شُكلت الجامعة العربية في مارس ١٩٤٥م تطلعت الأنظار إليها لتحقيق الوحدة العربية المرجوة.. ولكن ماذا كانت النتيجة في الواقع المرير؟

«انتهى الأمر فتمخضت الآمال الكبار العظام في تشكيل جامعة «دول عربية» لتبصم على ضياع فلسطين من جهة، ولتحمي الكيانات الإقليمية، وتحول دون وحدة حقيقية من جهة أخرى»[٢].

والباحث في نتائج أعمال جامعة الدول العربية يرجّح الرأي القائل بأنها من بنات أفكار «إيدن» الذي أراد بها قطع الطريق

---

(١) نفسه (ص:١٠٩).

(٢) نفسه (ص:١٦١).

أمام حركة قومية عربية أصيلة «تحقق مراميها بدون وجود أثر لصنائع النفوذ الأجنبي»(١).

ونرىٰ أن «إيدن» ومن ورائه الغرب أراد قطع الطريق أمام قيام حركة «الجامعة الإسلامية» فلم يكن من المعقول أن يسهم الغرب بجيوشه للقضاء علىٰ الخلافة العثمانية، ثم يسمح بتحقيق أي كيان وحدوي آخر يهدد مصالحه.فلم تنجح ثورة العرب الكبرىٰ في وجه الخلافة العثمانية، إلا بمساعدة الأسطول الإنجليزي الذي كان عمادها... فقد نزلت جنود إنجليزية وفرنسية في ثغور جدة ورابغ وينبع والوجه وغيرها من سواحل الحجاز... وإن الطائرات الإنجليزية هي التي كانت تستطلع مواقع الترك في المدينة وفي سواها من مدن الحجاز»(٢).

كذلك لا ينبغي نسيان أن أول عمل منظم في حركة القومية العربية يرجع إلىٰ عام ١٨٧٥م (عندما قام خمسة شباب من الذين

---

(١) نفسه (ص: ١٦١).

(٢) نفسه (ص: ١٣٥ - ١٣٦).

تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت «الجامعة الأمريكية» حاليًا بتشكيل جمعية سرية قبل تولي السلطان عبد الحميد بسنتين»[١].

وحتى بعد أن وقعت كارثة فلسطين عقب كارثة سقوط الخلافة، لم يع قادة العرب الدرس واستمر مسلسل الهزائم.

يقول د/ ذوقان قرقوط: «وبعد كارثة فلسطين، والمهازل التي انكشفت في مواقف الحكومات العربية، من عجزها بل وعقمها، بات مطلوبًا بإلحاح للنهوض من الكبوة ولرد التحدي وإسترداد الكرامة ورأب الجرح، التغيير: تغيير الحكم للوقوف في وجه الفساد والإفساد...»[٢].

وبدأت سلسلة الانقلابات في البلاد العربية بدءًا بسوريا، وانتهاءًا بليبيا في خلال أعوام متقاربة، وكان أحد أسباب الفشل

---

(١) نفسه (ص:٧).

(٢) نفسه (ص:١٦٥).

في استرداد أرض فلسطين المغتصبة هو غياب فكرة الجامعة الإسلامية.

ويضيف إلى ذلك أن الحكومات العسكرية التي أقيمت بعد الانقلابات ألحقت الأضرار بالبلاد كما يرى الدكتور أحمد شلبي رحمه الله: «ويبدأ الضرر بالعسكريين الذين يقومون بالانقلابات، إذ سرعان ما يضرب بعضهم بعضًا مما يؤكد أن الصحبة بينهم قصيرة العمر، فشركاء حركة الانقلاب تقفز العداوة بينهم بمجرد نجاح الانقلاب، ثم يتجه الضرر للمدنيين في البلاد، وهذه النتيجة لم تتخلف على الإطلاق... لقد حدث هذا بوضوح في أمريكا اللاتينية، وحدث في بعض البلاد العربية ومن بينها مصر، وحدث في الباكستان وأفغانستان وأوغندة وإفريقية الوسطى واليونان»[(١)].

ويُلحق بفكرة القومية فكرة الوطنية إذ نجحت أبواق

---

(١) د/ أحمد شلبي «موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية» (ص:٩٠)، دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصرة– ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم ص (٨٠١)، مكتبة النهضة ١٩٧٩م، وكتابه أيضًا «مصر في حربين ٦٧–٧٣ دراسة مقارنة» - مكتبة النهضة المصرية - يوليو ١٩٧٥م، ويُنظر كتاب توفيق الحكيم «عودة الوعي» دار الشروق٢٠٠٦.

الاستعمار من خلال قنوات التعليم والإسلام والأذناب في تحويل الآراء إلى الاتجاه المعاكس فبشهادة الاستاذ «محمد جميل بيهم»: «وكان المصريون جميعهم دعاة الجامعة الإسلامية على اعتبار أن مصر إسلامية في دينها وحضارتها، وهي جزء من عالم إسلامي يلتف حول الخلافة، وتجمع بين أجزائه الأخوة الدينية».

ولكن بسبب انتشار الفكرة القومية في العالم الغربي روّج لها من يؤيدها في الأوساط المثقفة بمصر، فبرز أنصار القومية الفرعونية «ومن ورائهم دولة الحماية -أي: إنجلترا[١]- وقامت بمصر بلبلة في الأفكار وتشتت في المقاصد وذلك خلال الصراع الذي حدث بين جامعة إسلامية تنكر لكل قومية، وبين قومية فرعونية تجاري النزعات القومية وتكافح كل كتلة دينية»[٢].

---

(١) وهي لا زالت تسعى إلى الآن -عام ٢٠٠٦م- مع خليفتها الولايات المتحدة إلى تكريس المزيد من تفتيت البلاد العربية (السودان - العراق).

(٢) محمد جميل بيهم «العروبة والشعوبيات الحديثة» (ص:١١)، نقاش مع الأساتذة: (أنطوان سعادة، كمال جنبلاط، سلامة موسى، د/ أمير بقطر)، ط. دار الكشاف - بيروت شعبان ١٣٧٦هـ - مارس ١٩٥٧م.

ويضيف الدكتور محمد حسين بدقة كيف غالى دعاة الفرعونية في مصر في دعوتهم فيقول: «إنها قد أصبحت دعوة انفصالية تنزع نحو الأنانية والانطواء على النفس، وتعارض الجامعة الإسلامية والجامعة العربية، وترى أن جامعة الوجود المكاني التي تربط بين من يعيشون على هذه الأرض اليوم وبين من عاشو عليها منذ آلاف السنين، هي أقوى وأحق بالرعاية من الجامعة الزمانية التي تربط بينهم وبين أبناء جيلهم ممن يعيشون في غير مصر، وهي أقوى وأحق بالرعاية من الجامعة الروحية التي تربط بينهم وبين أبناء دينهم، ومن الجامعة العقلية والثقافية التي تربط بينهم وبين أبناء لغتهم»(١).

ولكن كان هناك تيار آخر يُمثله حزب مصطفى كامل باشا، الذي جمع بين بعث الوطنية المصرية والدعوة إلى الجامعة

(١) د/ محمد حسن : «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» ط٢، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م، جـ٢ - ص (١٤٠) مكتبة الآداب بالجماميز - القاهرة.

الإسلاميـة التي تنتظم فيها الأقطار والوطنيات والقوميات.... والوطنية بهذا المفهوم ترى الجامعة الإسلامية سياجها الإقليمي.. «ولم تكن وطنية سعد زغلول باشا التي تنفض اليد من الدائرة العربية والإسلامية يأسًا وقنوطًا»[١].

وانتمى إلى مدرسة مصطفى كامل الدكتور عبد الرزاق السنهوري الذي كان يحلم منذ صغره بالجامعة الإسلامية، ويتمنّى قيام جمعية أمم شرقية إلى جانب جمعية الأمم العربية[٢].

وكتب يقول: «إن دول الشرق لا يمكن أن تجتمع على شيء واحد غير دين الإسلام... ولقد كنت أحلم صغيرًا بالجامعة الإسلامية... وكلما تقدمت في السن ازداد إيماني وتعلقي بقيام الشرق الإسلامي.... وبجمعية أمم شرقية.... فالشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق.. إنهما شيء واحد... وإذا تحدثت عن أحدهما

---

(١) د/ محمد عمارة «إسلاميات السنهوري باشا» (١/ ٩٥) دار الوفاء بالمنصورة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

(٢) نفسه (ص:٩٦).

فكأنني أتحدث عن الآخر»[١].

ويتضح من هذه العجالة الخطأ الكبير الذي وقع فيه قادة العرب -وعلى رأسهم الشريف حسين- إذ أغفلوا حقيقة إرادة شعوب المنطقة التي لم تكن تقبل بغير حكم إسلامي، وهو ما أثبته الباحث «دافيد فردمكين» حيث قال:

«إن البريطانيين في القاهرة عند تقويمهم للتقارير التي تحدثت عن استياء الحكم العثماني في بعض أقسام الإمبراطورية، قد أخطؤوا في فهم إحدى الخصائص البارزة للشرق الأوسط الإسلامي، أي أن هذا الشرق بقدر ما كان له من وعي سياسي، لم

---

(١) نفسه (ص:٩٣).

ويذكر الدكتور محمد عمارة أن أهل القانون المصري توجّوا السنهوري إمامًا لفقهاء القانون الحديث... أما فقهاء القانون في أوروبا -وخاصة في إنجلترا وفرنسا- فقد أدركو رسوخ قدم السنهوري في الشرعية الإسلامية والفقة الإسلامي، فأطلقوا عليه لقب «الإمام الخامس» بعد الأئمة العظام للمذاهب الإسلامية الأربعة (ص:٦) نفس المصدر. مع العلم بأن للسنهوري باشا كَتَبَ كتابًا بعنوان: «الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح هيئة أمم شرقية» (ص:٧٧) نفس المصدر.

يكن مستعدًا للقبول بغير حكم إسلامي»[١].

ثم توالت الثورات -أو بالأصح الانقلابات العسكرية- في المنطقة، وكلها أغفلت -أو على الأقل- لم تلق بالًا إلى الخصائص البارزة لشعوب الشرق الإسلامي، وألقت وراء ظهرها بفكرة «الجامعة الإسلامية»، بينما كانت هي البديل الشرعي للخلافة العثمانية.

أضف إلى ذلك أن انفراط عقد الأحزاب والتكتلات في الأقطار العربية يرجع إلى عاملين:

الأول: إن مبادئها غير مستمدة من التراث الإسلامي، فهي إما قومية عربية منسلخة من الإسلام، أو فلسفة شيوعية تتناقض مع عقائد الأمة وقيمها.

الثاني: لم يكن القادة على مستوى تحمل الأمانة لتفشي الانتهازية لديهم[٢].

---

(١) «المشروع القومي الذي لم يتم» (ص: ٢٥).
(٢) نفسه (ص: ٣٠).

ونستخلص من قراءة صفحات تاريخنا المعاصر، ودراسة أسباب الهزائم، أن زعماء العرب منذ زوال الخلافة العثمانية، وحتى الانقلابات العسكرية في البلاد العربية، افتقدوا النظرة الصائبة للمعركة مع الصهيونية بأبعادها التاريخية والدينية ولم يفطنوا إلى أنها معركة الإسلام الكبرى في هذا العصر، وهي امتداد لمعارك صلاح الدين ونور الدين الشهيد(١).

وإذا درسنا أسباب نكبة فلسطين لوجدنا أن أحدها يرجع إلى تحويل القضية من بُعدها الإسلامي، إلى نطاق القومية العربية الضيق، فسلبها قدرات الأمة الإسلامية الهائلة، وأفقدها القيم المعنوية العليا التي ينبغي الدفاع عنها.

ويرى الشيخ محمد الصواف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان لابد أن «ننقل قضية فلسطين من نطاقها العربي الضيق إلى نطاقها الإسلامي الواسع، ونستثير الشعور الديني لدى المسلمين في كل مكان،

---

(١) محمد محمود الصواف «نداء الإسلام» (ص:١٥٣)، دار العلم - عمان، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.

ونشعرهم أن المعركة معركة الإسلام الكبرىٰ في هذا العصر، وإن العمل لها جهاد في سبيل الله»[١].

ويعلل الهزائم المعاصرة للأمة بأنها شقيت «برجال عبدوا المناصب من دون الله، وضحوا في سبيلها، بكرامة الأمة، وبشرف الإسلام»[٢].

أما كون قضية فلسطين قضية إسلامية فلأن «مصير بيت المقدس والأرض المقدسة مرتبط بمصير الإسلام ووحدة دُوَلِه... ولأن العدوان الصهيوني علىٰ فلسطين عدوان علىٰ العالم الإسلامي باعتبار أن فلسطين هي الخط الأمامي له، وتشتمل علىٰ قبلة المسلمين الأولىٰ وعلىٰ مسرىٰ ومعراج الرسول الأعظم ﷺ، وإن اقتطاع فلسطين من الجسم الإسلامي نذير خطير محدق بالأقطار الإسلامية»[٣].

---

(١) نفسه (ص:١٥٦).

(٢) نفسه (ص:١٣٣)، بينما مرت الأمة في تاريخها بكوارث أشد هولًا مما تعانيه الآن، ولكن قادها إلىٰ الانتصار قادة مخلصون.

(٣) محمد دياب «الإسلام والمواجهة الشاملة» (ص:٧٠)، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية – بالقاهرة (العدد ١٤٩) شعبان سنة ١٣٩٣ هـ - سبتمبر ١٩٧٣ م.

وقد أحيت فاجعة فلسطين في القلوب رابطة الانتماء الإسلامي، وارتفعت بمستواها عن الانتماء الوطني، فكتب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأسلوب أدبي رشيق يقول:

«يا فلسطين! إن في قلب كل مسلم جزائري من قضيتك جروحًا دامية، وفي جفن كل مسلم جزائري منتحلًا عبارات هامية، وعلى لسان كل مسلم جزائري في حقك كلمة مترددة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير، قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصغير»[١].

وخلاصة القول: فبعد فشل المشروع القومي الذي كان سببًا في الهزائم المتتالية، لم يبق إلا الالتجاء إلى الوحدة الإسلامية، حتى في شكل الخلافة غير الكاملة حسب وصف الدكتور السنهوري، إذ يجوز تعدد الخليفة للضرورة (ولكن الخلافة هنا تكون خلافة غير

---

(١) محمد البشير الإبراهيمي «عيون البصائر ٢» (ص:٤٩١)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر بدون تاريخ.

كاملة، على أن الخلافة الكاملة يمكن تحققها إذا اجتمعت كلمة المسلمين لا على أن تكون له حكومة مركزية واحدة، فذلك قد يصبح مستحيلًا، بل يكفي -على ما أرى- أن تتقارب حكومات الإسلام المختلفة وأن تتفاهم، بحيث يتكون فيها هيئة واحدة شبيهة (بعصبة الأمم المتحدة) تكون على رأس الحكومات، وتكون هي هيئة الخلافة، ولاسيما إذا ألحق بهذه الهيئة مجلس مستقل عنها، ويكون مقصورًا على النظر في الشؤون الدينية للمسلمين»[(١)].

وعلى أثر إخفاق القومية ومعها الماركسية في بلاد المسلمين لحل المشكلات الناجمة عن الاستعمار الغربي العسكري واليأس الاقتصادي والثقافي، برزت الأسئلة التالية لدى كثير من المؤمنين «ما ديني؟ وما أهميته في حياتي؟ وكيف يكون سلوكي محكومًا بعقيدتي الدينية؟»[(٢)].

---

(١) د/ محمد عمارة «إسلاميات السنهوري باشا» (١/ ٣٣٠)، مصدر سابق.

(٢) مقال بعنوان : «التوسع في التعليم العالي وأثره في الفكر الديني في المجتمعات العربية المعاصرة» بقلم ديل إيكلمان (ص:١٣٦)، من كتاب (الكتاب في العالم العربي) تحرير جورج عطية، وترجمة عبد الستار الخلوجي، من سلسلة (عالم المعرفة) بالكويت - أكتوبر ٢٠٠٣ م.

ويعلق ديل إيكلمان على هذه الظاهرة الملفتة للأنظار بقوله: «وأنا أزعم أن تلك الأسئلة جديثة وأنها تحكم أقوال المسلمين وأفعالهم بطريقة مطردة»(١).

وأخيرًا، نترك الكلمة للأستاذ السيد يسين في حكمه على التيار الليبرالي العربي المعاصر إذ يقول: «غير أن التيار الليبرالي العربي الذي خفت صوته في مرحلة الخمسينيات والستينيات تحت وطأة ثِقَل الخطاب الاشتراكي والقومي، والذي عاد في العقد الأخير وارتفع صوته، يتسم بكونه أقل التيارات السياسية العربية إبداعًا في المجال الفكري. فليست هناك أعمال فكرية ذات بال أصدرها أنصار هذا التيار، بالإضافة إلى أن عددًا كبيرًا من أنصار هذا التيار قنعوا بالانضواء تحت شعارات «الليبرالية الجديدة» التي تقودها وتروج لسياستها الولايات المتحدة الأمريكية»(٢).

---

(١) السابق.

(٢) السيد يسين، مقال بعنوان «توجيهات متناقضة ووعي اجتماعي مشتت» جريدة الأهرام، بتاريخ ١٢ رجب ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧/٧/٢٦ م، (ص:١١).

ونحن نأمل -بعد هذا العرض الموجز لفشل تجربة المشروع القومي- والتجربة أقوى الأدلة في رأينا.. نأمل من مثقفينا المتغربين مشاركتنا الرأي في أنه لم يبق لنا سبيلًا للنهوض ومقاومة العولمة إلا المشروع الإسلامي الذي اقترحه الدكتور السنهوري.

قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].



العلاقة مع الآخر:

العلاقة مع الغرب: أهي حوار أم صدام؟

إذا انتقلنا من عرض معالم الحياة العامة داخل الوطن، إلى النظرة الأوسع التي تمثل علاقتنا مع الغرب التي يتحمل الشطر الأكبر عن أحوالنا المتردّية، فإن ذلك يقتضي استرجاع بعض واقعات التاريخ المعاصر: **ويدفعني حرصي على أجيال الصحوة الإسلامية القادمة بمشيئة الله تعالى أن أُجَلِّي الحقائق أمامهم اختصارًا للطريق الذي سلكه جيلنا، وتفاديًا للعثرات التي استهلكت الوقت والجهد** فأنني رأيت عرض تجاربي في أكثر من دائرة: منها إطار الوعي السياسي والوعي الثقافي حيث صبغوا عقول أجيال تلو أجيال بصبغة الثقافة الغربية وبخاصة نحن في عصر جهاز الإعلام الجبار الذي له اليد الطولى في تشكيل العقائد والآراء ويسوق المجتمع سوقا لتنفيذ «العولمة» إلى ما يريد أصحاب المصالح -أصحاب الشركات متعددة الجنسيات-.

تمهيد: خلفيّات حملة الصور المسيئة للرسول ﷺ (العداء الأوروبي المتوارث للمسلمين):

انكشف الوجه القبيح لحضارة الغرب، وزالت عنه مساحيق التكنولوجيا والتقدم العلمي، واتضح زيف شعارات السماحة والديمقراطية وحقوق الإنسان، وطفا على السطح ما تُكنه هذه الحضارة في أحشائها من عنصرية حاقدة، وهي ملوثة الأيدي بدماء الشعوب المغلوبة على أمرها من دول العالم الثالث، وأغلبه من المسلمين الذين واجهوا الاستعمار الغربي جنبًا إلى جنب مع مواجهة سلطانه السياسي والاقتصادي ودوافعه الصليبية.

إن الرسوم المسيئة للرسول ﷺ ليست إلا نقطة في بحر الكراهية ضد الإسلام والمسلمين، ويجب النظر إليها وبحثها في هذا السياق، وربما ترجع البداية إلى ما صرح به وزير الإعلام الصربي أثناء حرب «البوسنة» بقوله: «نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة»(١).

(١) «جنون الخطر الأخضر وحملة تشويه الإسلام» إبراهيم نافع (ص:١٦٩) مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

وهذه الصليبية ليس المسيحية السمحة التي جاء بها المسيح عليه السلام، وإنما هي روح الانتقام من الإسلام بسبب الهزيمة الكبرى لجيوش الغرب على يد «الناصر صلاح الدين»[١].

ومن يرقب ما يجري على الساحتين السياسية والإعلامية، يلاحظ أن هناك يقظة دينية في الغرب بأكمله - أمريكا وأوروبا- من أبرز معالمها رفع شعار «الخطر الأخضر»، مشحونًا بالأحقاد، إذ ربما هجر بعضهم الدين كعلاقة بين العبد وربه، ولكنهم يستخدمونه في الوقت الحاضر كرابطة قومية توحّدهم في وقت الخطر الذي يتوهمونه من الإسلام القادم.

وما كان الصحفي الدانماركي المخذول ليجرؤ على فعل جريمته إلا في الجو العام الملبّد بحملات تشويه الإسلام. وقد سبقه القسيس الأمريكي «جيري فالويل» -الذي ينتمي إلى جماعة «شهود يهوه»-، وتصريحاته لشبكة (سي بي إس) الإخبارية في

---

(١) «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» الدكتور محمد البهي (ص:٤٩٩) - دار الفكر بيروت ١٩٧٠ م.

برنامجها «٦٠ دقيقة»، وقد أساء إلى الرسول ﷺ وقال: «إن العقيدة الإسلامية تدعو إلى الحقد، لذلك يجب على الحكومة الأمريكية عدم التخلي عن إسرائيل أو معارضتها في أي شيء تفعله ضد العرب المسلمين»[١]، وهذا الموقف مجرد مثال لمضامين الإعلام في أمريكا «ذات المحتوى الديني المتعصب الذي يحط من الأديان الأخرى، خاصة الإسلام»[٢].

ومما ينبغي التنبيه إليه أن وسائل الإعلام والثقافة الغربية دأبت على ازدراء العرب والمسلمين «ولعل قاموس «وبستر» الأمريكي الذي يشرف الكونجرس على مادته وإصداره خير دليل على هذه النظرة الدونية، ورغم احتجاجات الجمعية الدولية للمترجمين العرب، إلا أن هذا القاموس المغرض لا يزال تتوالى طباعته ونشره؛ لأن أيًا من الدول العربية والإسلامية لم تبادر إلى الاحتجاج لدى السلطات الأمريكية»[٣].

---

(١) «جنون الخطر الأخضر» (ص:١٦٩).

(٢) نفسه (ص:١٥٥).

(٣) مقالة بعنوان «مسئولية المسلمين عن الإساءة الدانماركية» بقلم/ يوسف الشريف - جريدة «الأسبوع» ١٤ المحرم ١٤٢٧ هـ - ١٣ فبراير ٢٠٠٦ م.

ولكن رُب ضارة نافعة، إذ يرى الدكتور جمال حمدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن حملات التشويه والإساءة للإسلام دال على الاعتراف بأن العالم الإسلامي «ليس جثة هامدة أو كمًا مهملًا» آملا ارتفاعه إلى مستوى التحدي واستثارته ليثبت ذاته ونِدِّيته «ويفرض احترامه والاحترام المتبادل والمساواة المتبادلة ليبدأ سلام الشجعان، وصلح الفرسان، وربما تكون هذه العداوة هي مُفَجِّر الفرصة والنجاح»(١).

ولنستمر في المقاطعة كسلاح فعال يجعلهم صاغرين مع زيادة استمساكنا بسنته ﷺ ليموتوا بغيظهم.

ويُعلِّق الأستاذ رايق معوّض على الحملة المسيئة للرسول ﷺ بقول: «إن بواعث هذه الحملة ومحركاتها متخفية تحت طبقات الحقد المتوارث منذ قرون خلت. فهذه الحملة لم تنشأمن فراغ

---

(١) د/ جمال حمدان وصفحات من أوراقه الخاصة (ص:١١٦) دار الغد العربي ١٩٩٦- إعداد وتقديم د/ عبد الحميد صالح حمدان- وقد تحققت توقعات الدكتور جمال فيما رأيناه من غضبة أمة الإسلام عن بكرة أبيها دفاعًا عن الرسول ﷺ.

ولم تكن وليدة اللحظة، وإنما لها جذورها التاريخية منذ فتوحات الإسلام -وخاصة فتوحات الشام والأندلس والقسطنطينية- والحروب الصليبية، والتي ترسبت آثارها في نفس الإنسان الغربي وسكنت عقله الباطن، كما أن لها منابعها المنتشرة في أروقة المجتمع العربي التعليمية والثقافية والفكرية والإعلامية التي ترويها وتغذيها وتنميها، ولذا فهي تُستدعى عند الحاجة في أي مناسبة، وتبدو كما لو كانت رد فعل أو نتيجة لأي سبب، ولكنها في الحقيقة هي الفعل نفسه والسبب ذاته، قد يخبو أحيانا، ولكن سرعان ما يعود إلى الظهور تحت أي ذريعة معربًا عن نفسه، ومفجرًا أزمة كالأزمة التي فجرتها الرسوم المسيئة في الصحيفة الدانماركية.

وأخطر هذه المنابع المغذية بالروح العدائية ومشاعر المقت والحقد، المناهج الدراسية في مؤسسات التعليم الغربي، والتي تزود مقررات التاريخ والجغرافيا والأخلاق بالأباطيل والمفتريات، وتدس المغالطات وتثير الشبهات حول حقائق الإسلام وأصوله

المنّزلة والاعتقادية والتشريعية، كما تقدّم الصور الشوهاء عن واقع المسلمين المعاصر وتكيل لهم الاتهامات بما يدعو إلى الازدراء وإثارة الشحناء، ويبعث على العداء للإسلام والمسلمين، ويصد الآخر الغربي ليس فقط عن القناعة بالإسلام أو قبول المسلمين، وإنما يصده عن مجرد سماع الصوت الإسلامي في أي قضية يُعنَي بها المسلمون والعرب على الساحة الدولية، **ويحول دون الاعتراف بالآخر المسلم، والإقرار بدينه كرسالة عالمية خالدة**، وهذا هو واقع الحال في الدانمارك - إن الدراسة التي قام بها الأستاذ عبد الجواد فلاتوري ومعه مجموعة بحثية -في ثماني مجلدات- كشفت عن معالم تلك الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين في المناهج الدراسية في الغرب وخاصة ألمانيا، والتي طبعتها جامعة كولن الألمانية ولُخصت بالعربية[١] إطلالة على حقيقة مكنونات العقل والوجدان الغربي تجاه الإسلام وأمته.

---

(١) من مقال منشور بجريدة الأهرام في ١٣/ ٢/ ٢٠٠٦ (ص:١٣).

ولا يفوتنا بهذ المناسبة التذكير بأن كثير من المناهج الدراسية في بلاد العالم الإسلامي تحتوي أيضًا على تشوهات ومغالطات وشبهات خاصة بالتاريخ الإسلامي كآثار خلفّها الاستعمار الغربي لبلاد الإسلام في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ينبغي تنقية المناهج منها بعد دراسات مماثلة ينبغي القيام بها[١].

وإذا عرجنا على أجهزة ووسائل الإعلام الغربي، وشبكة المعلومات، ودور النشر، وما تنشره من كتب وإصدارات، وما تبثه من برامج وروايات ومسرحيات وتقارير ورسائل ومقالات وتحليلات وتحقيقات عن الإسلام وتاريخ المسلمين، وأخبار مجتزأة وانتقائية مشوّهة عن واقع المسلمين، بما يعمل على تزييف الوعي بالتاريخ والواقع المعاصر للإسلام والمسلمين، هذا فضلًا عما تبثه الصحف والمحطات الإذاعية المرئية والمسموعة التابعة

(١) كتشويه صورة الخليفة هارون الرشيد وتصويره في صورة الحاكم الذي يحيا حياة الترف والنعيم، وإغفال حقيقة حياة هذا الرجل الذي كان يحج عامًا ويغزو عامًا، وكان يخاطب السحابة ويقول : أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك.

لهذه الأجهزة الغربية في البلاد الإسلامية من برامج موجهة، علاوة على المدارس والجامعات الأجنبية المنتشرة في طول العالم الإسلامي وعرضه، تدعم هذا التشويه المتعمد، وتعزز هذا التزييف المقصود، وأحيانًا أخرى الإساءة والإيذاء اللفظي والكلامي](١).

تفسير العداء الأوروبي المتوارث للإسلام والمسلمين:

قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة البقرة:١٠٩].

ربما لا يخفى على الكثيرين أن الغزو الاستعماري بنوعيه العسكري والثقافي يتحمل مسئولية كبرى عن أحوالنا المتردّية، فإذا ما قام المسلمون لينفضوا عن أنفسهم آثاره باحثين عن الأصالة والذاتية من جديد، فما وجه الغرابة في حركة الصحوة الإسلامية ما دام هذا هو هدفها؟

---

(١) رايق معوض إسماعيل «الرسوم المسيئة وأزمة العلاقة مع الآخر» (ص:٥٢) دار البيان - محرم بك إسكندرية ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.

إن هذا هو المتوقع بعد الجرائم التي ارتكبها الاستعمار في حق أمتنا، وهذا ما يذهب إليه «جارودى» في تعليله لما يسميه البعض بموجة التعصب في بعض بلدان العالم العربي الإسلامي -وهو في حقيقته حرص على المحافظة على الذاتية-، فيقول: «**علينا ألا ننسى مسئولية الغرب في ذلك**، فخلال كل مراحل الاستعمار والانتداب وحتى أيامنا هذه، حيث الاستعمار الجديد والشركات الرأسمالية، كانت مظاهر الحسم والسلطة تأتي من خارج الحدود وما تزال، ولهذا فطبيعي أن يكون «رد الفعل» الأول للدفاع عن النفس هو القطيعة مع «الخارج» والانكفاء أو الانطواء على الذات»[(١)].

وكان جوستاف لوبون قد علّل قبله الروح العامة للعداء الأوروبي نحونا بسبب الحضارة الإسلامية الساحقة، وكشف عن الأحقاد الموروثة منذ الحروب الصليبية، والنزعة العنصرية التي لا تعترف لأحد بالتساوي مع حضارة الغرب المتوارثة من اليونان واللاتين.

---

(١) «ما يعد به الإسلام» (ص:٢٤٦)، روجيه جارودى ترجمة قصى أناسى.

يفصح لوبون عند ذلك كله بقوله: «فالحق أن أتباع محمد ﷺ ظلوا أشر -هكذا!- ما عرفته أوربا من الأعداء إرهابًا عدة قرون، وأنهم عندما كانوا لا يُرعدوننا بأسلحتهم، كما في زمن «شارل مارتل» والحروب الصليبية، أو يهددون أوربا بعد فتح القسطنطينية، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس.

وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، وصارت جزءا من مزاجنا، وأوضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي أحيانا والعميق دائما.

.. زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة أن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي، أدركنا بسهولة، سر جحودنا العام لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوربا»[١].

---

(١) «حضارة العرب» جوستاف لوبون (ص: ٢١-٢٢) ترجمة عادل زعيتر ١٩٦٩ م.

ويتضح صحة تعليل جوستاف لوبون إذا ما بحثنا في ظروف نشأة بعض الساسة المعاصرين المؤثرة في تكوين شخصياتهم، التي تثمر في النهاية اتخاذ قرارات متعصبة ضد الشعوب الإسلامية، إذ تبين للأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثناء وجوده بأمريكا أن الكثرة الحاكمة هناك «تخرّجوا في المعاهد التبشيرية. وهي حقيقة أفضىٰ إليَّ بها أحد الأساتذة الإنجليز الذين التقيت بهم في أمريكا، وعدّ لي عشرات من الأسماء البارزة في وزارة الخارجية الأمريكية وفي السلك السياسي»[١].

جرائم الاستعمار العسكري وآثاره في العالم الإسلامي:

جاء الغزو الاستعماري من الأبواب الخلفية للعالم الإسلامي في العصر الحديث وكأنه لقىٰ الدرس القاسي عندما واجه العالم الإسلامي بغزو قلبه -أي: مصر والشام وفلسطين- إبّان الحروب الصليبية، فجاء هذه المرة من الأبواب الخلفية حتىٰ استولىٰ على

---

(١) «معركة الإسلام والرأسمالية» سيد قطب ط. دار الشروق ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

جزر الهند الشرقية وأندونيسيا في القرن السابع عشر، والهند ١٧٦٣م وكذلك الملايو. وبعد ذلك هاجم البلاد المواجهة لأوروبا، فاستولى على الجزائر سنة ١٨٣٠م وتونس ١٨٨١م ومصر في عهد نابليون ١٧٩٨م ثم انجلترا ١٨٨٢م والسودان. كما اكتسح أفريقيا أيضًا.

ولم ينفرد الاستعمار الأوروبي الغربي وحده بالحملات الاستعمارية للعالم الإسلامي بل شاركته أيضًا روسيا القيصرية حيث توغلت في بلاد الاستبس جميعا حتى القوقاز وتخوم إيران.

يقول الدكتور جمال حمدان: «ومن كَشْفِ الخسائر هذا يتضح أن العالم الإسلامي جميعا قد سقط تحت طرقات الاستعمار فيما عدا اليمن وقلب الجزيرة العربية لا لأنه مهد الإسلام بقدر ما كان لفقره.. وكذلك نستثني هضبتا إيران والأناضول، ولو أنهما لم ينجوا من مناطق النفوذ والتقسيم.

ومن هنا فقد كان التحدي تحدي حياة أو موت بالنسبة للإسلام، وأعاد إلى الأذهان ذكرى الصليبيات.

ولم يحاول الاستعمار الأوروبي من جانبه أن ينكر هذا ابتداءً من «اللنبي» في القدس حين أعلن أنـه «الآن انتهت الحروب الصليبية» إلى جورو في دمشق حين أطلق شماتته المعروفة «قد عدنا يا صلاح الدين»[١].

ويعبّر هذان القائدان العسكريان عن (اللاشعور) في أعماق النفسية الغربية، بالإضافة إلى الاستجابة إلى مناهج التعليم الدينية والتاريخية بالمدارس والجامعات التي تعكس تجارب الغرب في تحدياته للشرق الإسلامي. يقول توينبي: «**فمنذ قرون طويلة كان أسلافنا يرون في الإسلام خطرا مخفيا يتهددهم** قبل أن يسمع الناس بالشيوعية. ففي القرن السادس عشر -وهو الزمن القريب منا نسبيًا- كان الإسلام يبعث في قلوب الغرب من الهوس ما تبعثه الشيوعية في القرن العشرين، وهذا يرجع في جوهره إلى أسباب واحدة: ذلك إن الإسلام -كالشيوعية- كان

---

(١) د.جمال حمدان «العالم الإسلامي المعاصر» (ص:١٣١-١٣٢) ط. عالم الكتب - القاهرة.

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

والنظم حيث سعت الدول المستعمِرة -بكسر الميم- إلى فرضها على الشعوب المستعمَرة -بفتح الميم-.

ويكفي الاطلاع على بضعة صفحات من كتب التاريخ الحديث لكي نستخلص ملامح الاستعمار وأساليبه التي تثبت أنه بعيد تماما عن أية قيم أخلاقية أو مبادئ إنسانية فإنه ليس دعوة إلى التعمير وزرع الخير والإسهام في الإصلاح، بل كان الإفساد ديدنه والقوة الغاشمة منهجه، وإفساد الذمم والضمائر سبيله وهدفه لكي يستقر به المقام بالرغم من إرادة الشعوب المقهورة.

وخاضت هذه الشعوب معارك قاسية وقدمت الضحايا تلو الضحايا دفاعا عن عقيدتها وكرامتها وبلادها مما يرسم أمامنا لوحة خالدة يقف الباحثون أمامها للتأمل والدراسة للتعرف على خطوطها والتمييز بين ألوانها الزاهية المتداخلة.

ونقصد بذلك دعوة الباحثين للوقوف معنا أمام هذه اللوحة التي رسمتها الشعوب بدمائها لنستخلص منها مقدمة ونتيجة:

أولًا: أن حركات مقاومة الاستعمار كانت بدوافع دينية وليست بدوافع وطنية أو قومية.

وهو ما جعل الدكتور جمال حمدان يقرر أنه «ليست صدفة تاريخية أو سياسية بالقطع أن يتحول العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر، ولكن بالأخص في القرن التاسع عشر إلى خلية عارمة تزخر بالحركات الدينية والتيارات والدوامات السياسية، تضع الضغط والتأييد جميعا على **الوحدة الإسلامية الكبرى أساسًا، وتتخذ بوصلتها -قبلتها- ماضي الإسلام البطولي «السلفية»»**[١].

ونرى أن هذه الحركات لم تندفع بوحي العاطفة الدينية المتأججة وحدها بقدر ما تستند أيضًا إلى وعي تاريخي يقظ، يقف على التلازم المضطرد بين الاستمساك بالإسلام كحائط فولاذي لمقاومة المعتدين من جانب ومقوم جوهري للتقدم الحضاري

---

(١) د/ جمال حمدان: «العالم الإسلامي المعاصر» (ص:١٣٢ - ١٣٣).

والجديد في تعبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن اعتبر «السلفية» تمثل ماضي الإسلام البطولي، ويعني بذلك «الجهاد» الذي أدى إلى هزيمة امبراطوريتي الروم والفرس.

بأوسع معانيه من جانب آخر، كما سنبين ذلك عندما نتناول طبيعة حركات المقاوَمة للاستعمار العسكري.

ثانيًا: وهي النتيجة المنطقية المترتبة علىٰ سابقتها في رأينا، فكم صدرت من بحوث ومقالات تدور حول الصحوة الإسلامية المعاصرة تعليلًا وتحليلًا فتضطرب بين عوامل نفسية واقتصادية وسياسية وغيرها من العوامل فتتشابك بين يديها الخيوط وتتعقد ومن ثم تعجز عن فكها.

أما نحن فنرىٰ الإمساك بأول الخيط وحينئذ تستقيم معنا النتائج، وأول الخيط الذي نعنيه هو الاصطدام بالغزو العسكري الاستعماري حيث يشكل الإسلام بعقيدته وعباداته وشريعته وقيمه نقطة المقاومة الرئيسية إذا تسلحت به الأمة دفاعا عن نفسها وظلت تقاوم بصلابة كل محاولات الاستعمار للقضاء علىٰ دينها أو محو تراثها وتحويلها إلىٰ تابع ذليل لدوله وثقافته. قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤].

وخدع الاستعمار نفسه حينما ظن بعد سنوات تتراوح بين قرن وعدة قرون على مدى مساحة العالم الإسلامي، ظن أنه انتصر نهائيا، وأن تحدّيه هذه المرة بلغ غايته، ولم يكن يعلم أن الإسلام في أعماق الأمة يؤدي دوره المزدوج -أي: المحافظة على ذاتيّة الأمة، كما كان الدرع الذي دافعت به عن كيانها في نفس الوقت.

أجل، الإسلام بمصدريه: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ظلا في قلب الأمة وبين أيديها تعض عليهما بالنواجذ، والعبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج تذكرها بالعبودية لله تعالى وحده، وتحررها من عبوديتها لغيره كائنًا من كان، فضلًا عن تراثها الفقهي والتشريعي وآثارها التاريخية التي تجسد حضارتها وتنعش ذاكرتها.

وكل ذلك يشكل عوامل ثابتة صاحبت الأمة الإسلامية منذ بعثة رسول الله ﷺ، بينما تُعَبِر موجات الغزوات العدائية في تاريخها عن العوامل الثانوية التي تحرّك الأمة وتوقظها كلما

أخلدت للدّعة وغفلت عن رسالتها. ويصدق ذلك التحليل منذ غزوات التتار إلى الحروب الصليبية إلى الغزوات الاستعمارية في العصر الحديث.

وبالرغم من أن الاستعمار في هذا العصر قد استفاد من دروس هزيمة أجداده الصليبيين فابتدع أساليب جديدة في الغزو الثقافي؛ إلا أن الإسلام ظل يؤدي دوره في الأعماق.

ثم دار الزمن دورته بعد أن فشلت خطط الاستعمار بنوعيها العسكرية والثقافية في الإبقاء عليه في ديارنا إلى الأبد كما كان يظن ويأمل، حيث استيقظت الأمة على حقائق مُرَّة عرفتها وخبرتها على يد الاستعمار بين الغزاة وعادت تقرأ في كتاب ربها عز وجل آيات النصر وآيات الهزيمة. لكي تعمل في ضوئهما ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧]، وذلك لكي تصد عن نفسها أفاعيل الدول الاستعمارية التي كانت تريد القضاء على العقيدة، لأنها عرفت من خلال تجاربها في الحروب الصليبية أنها بمثابة الدرع لشعوبنا.

كانت فرنسا وإيطاليا وانجلترا على رأس الدول التي أتت بالمخازي والشنائع[١]، ولنكتف بنبذة يسيرة لتصوير بعضها بينما المصادر مليئة بكل ما هو مشين ومخجل للزاعمين بأنهم أهل الحضارة والرقي: فماذا فعلت فرنسا مع مسلمي المغرب؟

إنها أصرت على تنصير المسلمين فبدأ الفرنسيون بهذه السياسة في الجزائر، وفصلوا بين الأمة البربرية والعرب وبثوا الدعاة والقسوس وشادوا المستشفيات والمدارس الفرنسية بنية تنصير الأهالي، وتعمدوا رفع التعليم الديني الإسلامي بقدر الاستطاعة وبلغ الهوس بالسلطة الفرنسية أن منعوا أي مسلم عربي من دخول مناطق البربر وتركوا الرهبان يجولون في بلاد البربر كما يشاؤون. ومنع الحاكم الفرنسي سكان إحدى البلاد من بناء مسجد وأعطى الأرض التي كانت مخصصة له للرهبان ليبنوا فيها كنيسة بينما لا يوجد نصارى بهذه البلدة (زمور) إلا الحاكم الفرنسي.

---

(١) ويعلل ذلك شكيب أرسلان بقوله: «وهذا كله إنما هو راشح من بقايا المبادئ الصليبية التي لم يتمكن العلم العصري من اقتلاع جذورها من رؤوس الأوروبيين».

وحدّث ولا حرج عن إلقاء بعض السكان بالسجن لأنهم طالبوا بالإبقاء على قضاتهم الشرعيين.. وغيرها وغيرها من اجراءات مخالفة لما تعهدت به فرنسا في معاهدة (الحماية) التي نصت على «أن جميع الإصلاحات التي تقوم بها داخل المغرب لا تمس الدين الإسلامي في شيء ولا تجلب أي ضرر على الحالة الدينية ولا تلحق أدنى مساس بنفوذ السلطان»[١].

وهناك فظائع أخرى ارتكبتها ايطاليا يتوقف القلم عندها مترددا من هول ما يجب أن يخط وما هي في الحقيقة إلا نزر يسير من جرائم تملأ مجلدات حيث ارتكب جنود ايطاليا موبقات طوال عشرين سنة في طرابلس الغرب مما «لم يسبق له مثيل إلا في القرون الوسطى وقد يكون من باب النادر في القرون الوسطى نفسها»!!

(١) «حاضر العالم الإسلامي» (٣/ ٣٣٢)، وانظر الصفحات من ٣٢٩ إلى ص ٣٤٢ وتتضمن ما فعلته إيطاليا من جرائم أيضا، وما خفي كان أعظم!.

ويروى لنا شكيب أرسلان أحد هذه الموبقات التي تتلخص في إخراج ثمانين ألف عربي من الجبل الأخضر من أوطانهم وأسكنوهم في صحراء قاحلة وأماتوا بذلك جانبا كبيرا منهم وجميع مواشيهم وارتكبوا في هؤلاء المساكين من الفظائع والشنائع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وأخيرا اغتصبوا من أيديهم أطفالهم من ذكور وإناث ممن فوق سن ١٥ سنة وحولوهم إلى ايطاليا لأجل تنشئتهم في الدين المسيحي(١).

ويؤسفنا أن كبار فلاسفتهم كانوا مؤيدين لهذه المظالم، بل يحاولون تبريرها بشتى الطرق، وعلى سيبل المثال يقول مونتسكيو في كتابه «روح القوانين»: «إذا طُلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدا، فإني أقول: إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين، لم تر بدًا من أن تستعبد شعوب أفريقيا لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار

---

(١) المرجع السابق (٣/ ٣٤٠) - والآسي مازالت مستمرة وما مذابح «صبرًا وشاتيلا» بلبنان و«غزة» بلفسطين منّا ببعيد!!

الفسيحة، والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس وأنفها أفطس فطسا شنيعا، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن ترثي لها، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله ﷻ وهو ذو الحكمة السامية قد وضع روحًا -وعلى الأخص روحًا طيبة- في داخل جسم حالك السواد»[١].

---

(١) نص مترجم من الفرنسية بقلم الدكتور محمد عوض محمد بكتاب «الاستعمار والمذاهب الاستعمارية» (ص: ٣٧)، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م.

فلسفة الاستعمار وأهدافه: دراسة تحليلية:

اقترنت روح العداء للإسلام بالرغبة في نهب ثروات العالم الإسـلامي، وكانت النظرة العنصرية هي المسيطرة علىٰ سياسته وفلاسفته، وصاحبها أيضًا اصطناع المبرر لليهود ومعاونتهم علىٰ اغتصاب أرض فلسطين وتفريغها من سكانها الأصليين بالمذابح والمجازر التي ما زالت مستمرة، وليست جريمة الحملة اليهودية العسكريـة لغزّة في يناير ٢٠٠٩م عنّا ببعيد. وإذا تابعنـا حركات مقاومة الاستعمار في البلاد الإسلامية وجدنا كلها بدافع الجهاد استجابة لنداء الله ﷻ.

وسنعرض علىٰ القارئ في عُجـالـة صورة أمينـة تخبرنـا بنهب الاستعماريين لبلادنا الإسلامة ونظرتهم العنصرية لنـا.

هذه الصورة منقولة من كتاب «معـارف» لـ «أرنولد توينبي» توضح لنا أبعاد المؤامرة الاستعمارية علىٰ بلادنا إبان مؤتمر السلام سنة ١٩١٩م.

قال: «ذات يوم كان عليّ أن أُسلم بعض الأوراق إلى «لويد جورج» -رئيس وزراء بريطانيا حينئذ- على أثر انتهاء أحد الاجتماعات الخاصة بالشرق الأوسط. إنني كثرًا ما رأيت «لويد جورج» وأنه يتكلم، ولكن كانت هذه المناسبة الوحيدة التي قابلته فيها، ولقائي هذا معه لم يستمر أكثر من دقيقة أو دقيقتين، ولكنه كان ما أسرني -وبدأ يفكر في صوت مرتفع كما يلي: «ما بين النهرين... نعم نفط، يجب أن نأخذ ما بين النهرين، فلسطين.... نعم الأرض المقدسة، الصهيونية يجب أن نأخذ فلسطين، سوريا.... ها.... ماذا في سوريا؟ ليأخذها الفرنسون»!!!

وعلق توينبي على هذه الواقعة الذهلة بقوله: «إن حوار لويد جورج الذاتي اللاواعي قد كشف عن معرفة ذكية لمزايا الأقطار العربية العثمانية، السياسية والاقتصادية».

ولكنه ببقايا من نبض الضمير، اعترف بأنه لم يكن هناك ذكر مسموع للعامل الإنساني الذي كان موضوع تحري وتقرير لجنة «كنج وكرين»، وأخذ على «لويد جورج» أنه عندما عدد

(النقاط) في الدول العربية، أهمل حقوق العرب أنفسهم وأمانيهم[1].

ومتىٰ كان هؤلاء يعنون بحقوقنا وأمانينا ؟!!!!!

وكلما توسعنا في القراءة والإطلاع، ظهرت لنا أبعادًا أخرىٰ لدوافع الغرب وراء تطلعاته وغزواته الاستعمارية لبلاد الإسلام، وتتضح هذه الدوافع في الفكر الفلسفي لبعض فلاسفته الذين قدموهم إلينا في ألوان براقة لامعة، واخفوا عن عمد نواياهم الخفية وأحقادهم المدفونه بين ضلوعهم، والتي تظهر من ثنايا تعاطفهم ومناصرتهم لليهود ضدنا.

وتأملوا معنا بعض أقوالهم: يوقل «لوك»: «إن الله تعالىٰ قادر علىٰ جمع اليهود في كيـان واحد». ووصف «كانـط» اليهود بأنهم: «الفلسطينيون الذين يعيشون بيننـا».

---

(١) مقال الأستاذ صدقي عبد الله خطاب «أرنولد توينبي» (ص:٢٩٥) مجلة «عالم الفكر» - الكويت - أبريل - مايو - يونيه ١٩٧٤م.

ولا شك أنه قد حدث مثل ذلك في المؤتمر الثاني - سنة ١٩٤٦ عقب الحرب العالمية الثانية إذ قال: «إن الساعات الكثيرة التي أنفقتها في المؤتمرين الأول في مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩م، والثانية سنة ١٩٤٦م مصغيًا، أصبحت جزءًا قيمًا جدًّا من ثقافتي».

ويرىٰ «روسو»: «أنهم لن يعرفوا الدوافع الداخلية لليهود أبدا حتىٰ تكون لهم دولتهم الحرة ومدارسهم وجامعاتهم».

أماالأوصاف الواردة بالأدب الجديد فهي تطلق علىٰ الأتراك ألفاظًا مثل: «الكافر الفظ» و«التركي الرهيب»(١).

إن الاستعمار كظاهرة صاحبت الإنسان والمجتمعات البشرية علىٰ مدار التاريخ، تعبر عن محاولة سيطرة القوة الغاشمةعلىٰ أصحاب الحق الضعفاء وأخذت تلبس أثوابًا مختلفة كانت أحيانًا عسكرية أو اقتصادية أو سياسية أو الآن في ظل ما يسمىٰ بالشركات متعددة الأجناس. ويخبرنا التاريخ بأن هذه الظاهرة إما تظهر علىٰ السطح سافرة واضحة تمثل غلبة القوىٰ الشيطانية علىٰ قوىٰ أو أهل الحق الضعفاء، أو تتخفي في أشكال وتلبس أردية لتخفي وجهها القبح. ولكنها ظلت موجودة وما زالت ماثلة أمامنا.

---

(١) ينظر كتاب «الصهيونية غير اليهودية» لريجينا الشريف - ترجمة أحمد عبد العزيز - عالم المعرفة - الكويت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م (ص:٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٣).

وما جاء الأنبياء والرسل عليهم السلام إلا لإنقاذ البشر من الوقوع تحت براثن قوي البغي فنادوا بالتوحيد أولا لتحرر البشر من عبوديتهم للملوك والأباطرة والكهنة إلىٰ العبودية لله وحده، وأمر الله ﷻ هذه الأمة باتخاذ الأهبه لمنع اعدائها من الطمع منها.

وهل نغفل الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠] حقًا إنهم أعداء لله تعالىٰ وأعداء أهل الحق!

لقد أحكم أخطبوط الاستعمار بأنواعه المختلفة (عسكرية - اقتصادية - ثقافية - سياسية - اتصالية) وأخذيفرض أساليب جديدة متنوعة تبعًا لأحوال ضحاياه حيث ظهرت في العصر الحاضر احدث وسائله فيما يسمىٰ «بالشركات متعددة الجنسية»، وفرض سيطرته علىٰ الدول التي استقلت صوريا بحيث جعلها لا تستطيع الحياة إلا تابعة للنظام الاقتصادي الدولي الذي تسيطر عليه الدول المتقدمة -أي: المستعمرة-[1].

---

(١) د/ حورية توفيق مجاهد: «الاستعمار كظاهرة عالمية» (ص:١٧٧) - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٨٥م.

إننا لا ننكر الدوافع المختلفة التي أشار إليها الباحثون وراء ظاهرة «الاستعمارية» كالتخلص من الزيادة السكانية أو نشر ثقافة وأيديولوجيـة، أو عوامل نفسيـة وغيرها -ولكن يبقي البقـاء للأقوىٰ أكثر وضوحًا وظهورًا علىٰ أحداث التاريخ ووقائع عصرنـا الحاضر أيضًا، مما يجعلنا نُغلِّب الرأي بأن الاستعمار «نتج طبيعيًا عن ظاهـرة القـوة التي يتميز بهـا الوضع الدولي»، أي ستظـل السيطرة للأقوى وهي حقيقة تاريخية ومعاصرة، وإلا فهل نستطيع التغاضي عن استخدام القوة العسكريـة التي مارستها الولايات الأمريكية في أفغانستان وفي العراق؟

الاستعمار الجديد ونظرية الصراع:

وأمام يقظة الشعوب بعد تضحياتها الغالية للتخلص من الاستعمـار العسكري الذي أصبح من مخلفـات القرن الماضي، ابتـدع دهاة الغرب نظريات جديدة، وأذاعوهـا علىٰ نطاق واسع لتبرير الغزو العسكري واحتلال أراضي العالم الثالث.

يقول الدكتور نبيل السمالوطي: «إن صناع السياسة في الغرب وظّفوا مجموعة من الباحثين الذين أخرجوا لنا نظريات مثل التحديث،ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وانتصارالليبرالية إلخ، وليس من الغريب أن مطلقي هذه النظريات وهم «رستو» و«فوكوباما» و«هنتجتون» و«توماس فريدمان» من مفكري الغرب بما يعني أن الأجهزة الرسمية لصناعة القرار في الغرب قد حددت علاقتها بالاسلام وبالمجتمعات الاسلامية على أنها علاقة صراع، وهذا يعني أنهم حددوا بشكل مسبق ومن طرف واحد شكل العلاقة واتجاه الحركة وأهدافها. ولم يكتف الغرب -الولايات المتحدة- بهذا التحديد وإنما تحركت في مجال التطبيق بشكل عسكري يستند إلى التفوق المطلق اقتصاديًا وعسكريًا بضرب مجتمعات إسلامية واتخاذ قرارات بضرب مجتمعات إسلامية أخرى بوصفها مصدر الشرور دون تفاهم مع أحد ودون التفات للمؤسسات الدولية أو القانون الدولي، وحتى دون حاجة

للإدلاء بالمبررات القانونية للاعتداء على هذه المجتمعات والشعوب المسلمة»[١].

وفي النهاية يتساءل الدكتور نبيل السمالوطي بمناسبة ما يدور حول حوار الحضارات وحوار الأديان: «وفي ظل هذا الوضع غير العقلاني وغير المنطقي، هل يُجدي ما نطرحه من منهجيات وتصورات حول حوار الحضارات أو الحوار بين الإسلام والغرب؟!».

ثم يقرر: «هنا يكون توقيت الحوار غير مناسب وفي غير صالح المسلمين»[٢]. ومن بين النظريات التي ذكرها الدكتور نبيل يتضح أن نظرية هنتجتون لها أثرها الفعال فيما نُعايشه الآن من غزوات عسكرية لبلاد العالم الإسلامي. كالعراق وأفغانستان فإن الغرب «تحركه الآن أيديولوجية كاملة ضد المسلمين منذ صَكَّ هنتجتون نظريته التي تنبأت بأن الصراعات والحروب ستحركها

(١) د/ نبيل السمالوطي: «الإسلام والقضايا الاجتماعية المعاصرة» (ص:٩٦) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ١٧٢ - ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

(٢) المصدر السابق (ص:٩٢).

الأديان بعد أزمنة طويلة حرَّكت الموارد والمصالح والأموال حروب البشرية»(١).

وبعد الاقتناع بهذا التفسير الماثل أمامنا لم يبق إلا تسليح الأمة بدرعها المعنوي الممثل في عقيدتها الإسلامية مقترنا بالتسلح المادي الذي عبّرت عنه الآية الكريمة بـ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]. ولا ننسىٰ أننا أمة ذات رسالة عالمية مكلَّفة بإنقاذ بني آدم من سيطرة شياطين الإنس، لم يكن عجبًا إذن أن تتصدىٰ الأمة لمقاومة هؤلاء الغزاة بدافع عقيدتها؟ قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

فظهرت حركات المقاومة كلها علىٰ أساس الجهاد ببذل الأموال

---

(١) الكاتب يوسف القعيد: مقال بعنوان «الطريق إلىٰ مكة» (ص:١٢) جريدة الأهرام ١٥ جمادي الثانية ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٢٩/٩/٨م

والأنفس لصد الهجمات الاستعمارية، وكلها تشكل الخلفية الصحيحة لانبعاث النهضة الإسلامية المعاصرة، إذ تعبر عن استمرارية حركة المقاومة ضد الغزو الاستعماري الذي لم ينقطع، كما تهدف إلى إقامة نهضة حقيقية بعد إزالة آثار الاستعمار المتراكمة.

أجل، فإن الأمة كانت على يقين بأن الإسلام هو درعها لصد الهجمات الخارجية بالجهاد والمقاومة المستميتة التي تعبر في ذُروتها عن طلب الشهادة، وراجعوا -إن شئتم- حركة الجهاد الأفغانية التي انتصرت على أعتي القوي العسكرية المعاصرة ممثلة في الاتحاد السوفيتي قبل تفككه، ولا زالت تدافع عن نفسها أمام الولايات المتحدة الأمريكية وحلف الأطلنطي، أي دول الغرب مجتمعة.



الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

إن فحوى الكتاب يتضمن الإجابة عن السؤال الأول: «**ماذا علمتني الحياة؟**» فقد وجه إليَّ الأخ العزيز الدكتور محمد إسماعيل المقدم -حفظه الله تعالى- عدة أسئلة اختارها بعقلية الداعية الواعي والفقيه العارف بالقضايا التي تهم شباب الصحوة الإسلامية إذ عايشهم لسنوات طوال وأصبح خبيرًا بتطلعاتهم لمعرفة حقائق كانت خافية عليهم، أو تصحيح مفاهيم تلقوها من مصادر منحازة للاتجاه التغريبي، أو بأقلام كُتَّاب افتقدوا الاطلاع على المصادر والمراجع للتراث الإسلامي فجاءت أحكامهم مجانبة للصواب، أو كُتَّاب ليس لهم حظ وافر من الثقافة الإسلامية لشعبها العديدة في العقيدة والشريعة والتفسير والفقه وأصوله والتاريخ... إلخ.

اسهبنا في عرض جرائم الاستعمار الذي مازال يفترس الأمة الإسلامية عن طريق الاحتلال العسكري ونهب الثروات وتنصيب العملاء، ولكن لا يصرفنا الواقع المرير عن التفتيش في أعماق أنفسنا لمعرفة أسباب هزائمنا، وبيان مسئوليتنا أيضًا.

وربما تنّبه شيخ الإسلام ابن تيمية إلىٰ مقولة «إن التاريخ يعيد نفسه» ولكنه وضعها في إطار سنة الله تعالىٰ في الهزيمة والنصر، فقد سُئل عن أسباب اجتياح التيار الديار الإسلام فأجاب بقوله: «فإن هذه الفتنة التي ابتلىٰ بها المسلمون مع هذا العدو المفسد، الخارج عن شريعة الإسلام، قد جرىٰ فيها شبيه ما جري للمسلمين مع عدوهم علىٰ رسول الله ﷺ في المغازي التي أنزل الله فيها كتابه، وابتلىٰ بها نبيه ﷺ والمؤمنين: ما هو أسوأ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا. إلىٰ يوم القيامة، فإن نصوص الكتاب والسُنَّة اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي، أو بالعموم المعنوي، وعهود الله في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ **تنال آخر هذه الأمة، كما**

نالت أولها، وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم، لتكون عبره لنا، فنشبه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها»[١].

أي أنه يلفتنا إلىٰ أسباب النصر والهزيمة، ويحذر من مخالفة الأوامر الإلهية، لأن الذنوب تورث الهزائم والكوارث للمسلمين كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد[٢]، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات علىٰ دين الإسلام، وأن يؤمن بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأن العاقبة للتقوىٰ. وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر، إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبّح بحمد ربه بالعشي والإبكار»[٣].

ولما كُنت أحد ضحايا ذلك كله، فقد رأيت من واجبي -إبراءً للذمة أمام الله تعالى ثم أمام الأجيال الجديدة- أن أوضح الحقائق التي اكتشفتها بفضل عناية الله ﷻ وتوفيقه، حيث أمتن علي

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١٨/ ٢٢٩) ط. الرياض ١٣٩٨ هـ.
(٢) «مجموع فتاوىٰ شيخ الاسلام ابن تيمية» (١/ ١٨، ص ٢٩٩) الرياض ١٣٩٨هـ.
(٣) نفسه (ص: ٢٩٥).

بالاطلاع على مصادر ومراجع صححت معلوماتي السالفة، وعدّلت موقفي من بعض الشخصيات والمذاهب التي تسربت إلى عقلي بطريقة التلقين، ولم أكن أملك أيام الشباب وسائل التمحيص والنقد لأننا كنا نضع أساتذتنا وكتابنا وأباءنا في مكانة تقترب من التقديس.

لذلك كله فقد كان لزامًا عليَّ التوسع في الإجابة على سؤال: «**ماذا علمتني الحياة؟**» للخوض في القضايا الهامة الآتية:

١- إزاحة الستار عن المسؤولين في صنع مناهج التعليم في مصر وكيف وظفوه لخدمة أهدافهم الاستعمارية وتفريغه من التراث الإسلامي، وكان المؤسسون لمناهج جامعة فؤاد الأول -القاهرة حاليًا- من المستشرقين ومن أهدافهم محاربة الإسلام، وتخريج طلاب منحازين للغرب وثقافته.

٢- إيضاح المكون الديني لفلاسفة الغرب إذ خدعونا بظاهرهم العقلاني.

٣- إثبات أن الغرب لا يزال يجتر تراثه اليوناني، فلم يتبرأ منه بدعوى التقدم والتحرر من «الرجعية».

٤- الصبغة الدينية للسياسة الغربية وكمون الروح الحاقدة للحروب الصليبية، وخاصة بعد انهيار الشيوعية فقد تحولت إلى البلاد الإسلامية -العراق وأفغانستان- وقبلها إبادة المسلمين بالبوسنة والهرسك بواسطة الصرب.

٥- فشل المشروع القومي العربي الذي أثار نعرات القوميات وكان مخالفًا لحقيقة وحدة الأمة الإسلامية.

٦- إزاحة الستار عن النفوذ السياسي العالمي للفاتيكان، وتدخل باب روما في السياسة الدولية -وهو النشاط الذي يخفيه الإعلام الغربي-، حتى نظل -معشر المسلمين- نعيش في الوهم الكبير والمضلل بمقولة إن الغرب قد فصل بين الدين والسياسة، ومازال بعض كتابنا ومثقفينا يردد هذه النغمة إما عن جهل بالحقائق الماثلة أمام الأعين، وإما عن اتباع الهوى والسير في ركاب المصالح والمنافع.

كذلك نود إيقاظ النائمين بتعريفهم بالهدف الآخر للبابا، وهو اقتلاع الإسلام وتنصير العالم!.

كذلك الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية، هناك الحرب مشتعلة بين اللاهوتيين البروتستانت والحداثة، رافضين أي حل وسط معها.

ولكن -مع الأسف- فإن المخدوعين في صفوفنا يروّجون «الحداثة» كمقابل لـ «السلفية»[(١)].

٧- إن الواقع الذي نعيش مخاضه في السنين الأخير ليفصح عن آخر ما في جعبة الاستعمار الجديد حيث أنشب أظافره في قلب الأمة لينهش عقيدتها ويمسخ معالمها بوسائل مناهج تعليم صنع خطوطها بعض المستشرقين وتلاميذهم لتخريج أجيال مستسلمة تجهل أن خيرية الأمة الإسلامية تتحدد بمهمتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ذروة سنام الإسلام هو الجهاد في سبيل الله كما ورد في حديث النبي ﷺ.

كما لم تَسلمْ اللغة العربية -لغة القرآن الكريم- من الحرب الضارية بإعلاء اللهجات العامية، ومزاحمتها باللغتين الإنجليزية والفرنسية بالمدارس والجامعات الأجنبية.

---

(١) ينظر كتابنا «السلفية لا الحداثة طريق النهضة» دار العقيدة - الإسكندرية.

يقول الدكتور محمود المناوي: «إننا نتعرض اليوم لمشروعات ودعوات ظاهرها الرحمة والتقدم وباطنها العذاب والخراب وفقدان الهوّية: دعوات بمسميات مختلفة: تغيير الحرف العربي، استعمال اللهجات العامية المحلية، الشرق أوسطية، الأورومتوسطية، إلغاء النحو، تجديب القواعد... إلى غير ذلك من المشروعات التي تستهدف إذابة الأمة العربية ولغتها، انتهاءً إلى عقيدتها»[(١)].

ويرى أن الهدف البعيد من وراء الهجوم على اللغة العربية، هو «فتح باب التشكيك في آيات القرآن الكريم لينفرط عقد العرب والمسلمين، وتنطمس هوّيتهم، ويذوبوا في بحر العولمة»[(٢)].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دكتور

مصطفى حلمي

---

(١) د/ الطاهر مكي مقال بعنوان «أطباؤنا واللغة العربية» (ص:١٠) صحيفة دار العلوم العدد (٥٤) – ذو القعدة ١٤٢٦هـ – ديسمبر ٢٠٠٥م.

(٢) نفسه (ص:٩).

الفهرس





الحمد لله
من إصداراتنا
قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي
أ.د. مصطفى حلمي
العقائد الخفية للشيعة الاثني عشرية
كتبه الدكتور مصطفى حلمي
خواطر حول كتاب
الإسلام بين الشرق والغرب
دكتور مصطفى حلمي
عقائد الشيعة في ضوء الكتاب والسنة وصحيح التاريخ
دكتور مصطفى حلمي
توزيع
الإسكندرية - أبو سليمان - ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
d_kholafa2@hotmail.com
الخلفاء الراشدين
الإسكندرية
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٢٥٨٣٤٥٧٤
dar_alfath@gawab.com